نظرات في الحديث

وفي الصحاح الستة ونبذة من تاريخ تدوين الحديث

الطبعة الأولى

الخاصة بدار ابن كثير

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب : ٣١١ - تلفون : ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي
ص.ب ١١٣/٦٣١٨ - تلفون ٨١٧٨٥٧ - ٠٣/٢٠٤٤٥٩

نظرات في الحديث

وفي الصحاح الستة ونبذة من تاريخ تدوين الحديث

للعلامة الأستاذ أبي الحسن علي الحسني الندوي

رئيس جامعة دار العلوم - ندوة العلماء - بلكهنؤ

جمعها وعلق عليها

محمد بلال عبد الحي الحسني الندوي

دار ابن كثير

دمشق - بيروت



مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين . وبعد :

فمما تقرَّر عند المشتغلين بصناعة العلوم أن علم الحديث النبوي الشريف من أهمها ، وأشرفها وأبعدها مدى عبر القرون والأجيال ، وقد عنت به الأمة بكل ما تيسَّر لها من الجهاد في سبيل حفظه وتدوينه ونقله ونشره ، والتهالك على تلقيه وجمعه ، والتنافس في ضبطه وإتقانه ، والاهتمام بكل ما يتصل به من علوم وفنون ، وكان لعلماء الهند مساهمة كبيرة في هذا المجال ، لا سيما في هذه القرون المتأخرة .

فهذا الكتاب الذي بين أيدينا حلقة من هذه الحلقات ، وهو في الحقيقة مقالات لسماحة شيخنا العلامة الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي ، كتبها كتقديمات على بعض كتب الحديث للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ الذي كان خاتم المحدثين ، ونموذجاً للعلماء الربانيِّين في عصره وقد كتب شيخنا هذه المقدمات تلبية لطلب الشيخ الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ فأجاد وأتم في الموضوع . وهذه ست مقدمات ؛

خمسة منها: على كتب الشيخ الكاندهلوي - رحمه الله - الأولى منها: على «الأبواب والتراجم للبخاري»، والثانية: على «لامع الدراري»، والثالثة: على «بذل المجهود»، وهو تأليف شيخه العلامة خليل أحمد المباركفوري، والرابعة: على «الكوكب الدري»، والخامسة: على «أوجز المسالك»، وفيه: مقدمة ضافية على تكملة «فتح الملهم»، للشيخ الفقيه المحدث القاضي محمد تقي العثماني - حفظه الله -، ومقالتان اقتبستهما من كتاب «المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف» لشيخنا، الأولى: بعنوان «الإمام النسائي وكتابه السنن» والثانية: بعنوان «الإمام ابن ماجه وكتابه السنن» ليتم الكلام على الصحاح الستة.

فهذا جمع لطيف وقد علقت عليه بعض التعليقات، وهي سعادة عظيمة قدرها الله تعالى لي فأحمده أبلغ حمد وأشمله، وأدعوه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به طلبة علوم الدين، وله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً و باطناً، وصلّى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

وأنا الفقير إلى رحمة الله الغني
بلال عبد الحي الحسني الندوي
دار عرفات دارة الشيخ علم الله
الهند رائي بريلي
مساء الخميس ١٨ شوال ١٤١٩ هجرية

دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

العناصر التي كونت المجتمع الجديد ، وأنشأت الأمة الجديدة :

أما بعد فقد كانت بعثة النبي ﷺ، مصدر كل خير ، ومنبع كل سعادة ، وبفضل ذلك وحده نشأ هذا المناخ الديني الفذ ، والمجتمع الإسلامي الفريد ، لكننا لو استعرضنا المنهج العملي في هذا الشأن والوسائل التي استخدمت في هذا الغرض ، لعلمنا أن مفتاح هذا الانقلاب الذي دهشت منه العقول ، وتحيرت فيه الألباب ، والعناصر التي تكون منها هذا المجتمع الجديد ، ونشأت منها هذه الأمة الجديدة ، إنما هي الأمور الثلاثة :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وحياته وسيرته وأخلاقه.

٣ ـ تعليمات النبي عليه الصلاة والسلام وإرشاداته ، و توجيهاته وأعماله التي يسمى مجموعها بالسنة ، ويحتوي عليها الحديث النبوي.

ولو تأملنا لعلمنا أن العناصر الثلاثة بمجموعها ، قد تعاملت في تحقيق الأغراض والفوائد المنشودة من البعثة ، وإيجاد أمة جديدة ، والحق أنه لا يمكن أن يوجد بدونها مجتمع مثالي ، وحياة مثالية ، وهيكل اجتماعي تتجلى فيه العقائد والأعمال ، والأخلاق والسلوك ، والعواطف والرغبات ، والميول والأذواق ، والأواصر والعلاقات ، إن الحياة شرط للوجود ، ومن سنة الحياة والكون أن السراج إنما يستنير من السراج.

وما نجده في حياة الصحابة الكرام ، والتابعين لهم بإحسان ، بجانب العقائد والأعمال ـ من الخلق الإسلامي ، والذوق السامي ، والعواطف الدينية العميقة ، والكيفيات الإيمانية العجيبة ـ لم يكن نتيجة تلاوة الكتاب وحدها ، وإنما كانت ـ بجانب ذلك ـ فيها يد لتلك الحياة المثلى المؤثرة ، الحبيبة الأثيرة ، التي كانوا يتفيؤون[١] ظلالها ، ويتذوقون جمالها ، ولتلك السيرة والأخلاق الفاضلة التي كانوا يشاهدونها ، ولتلك

(١) تفيأ الشجرة وفي الشجرة : استظل بها ، وتتبع الظلال.

المجالس والصحبة ، والإرشادات والتعليمات التي ظلوا يستفيدون منها ويسعدون بها ، على عهد صاحب النبوة عليه الصلاة والسلام.

كيف عاش الصحابة الإسلام ، ذوقاً ومشاهدةً وعملاً :

وهذه العوامل بمجموعها شكلت ذلك الذوق الإسلامي الممتاز الذي لا يقتصر على التقيد الرسمي بالقواعد المقررة ، والضوابط المرسومة ، وإنما كان مشحوناً بالحوافز والدوافع الطبيعية ، والكيفيات العملية ، وروح العبادة الخالصة ويتسم - بجانب الوقوف عند الحدود وأداء الحقوق - بالمشاعر اللطيفة والأحاسيس الرقيقة ، ودقائق مكارم الأخلاق.

إنهم وجدوا القرآن الكريم ، يأمر بإقامة الصلاة ، ووجدوه يلهج بذكر ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٢] ، ولكنهم لم يتوصلوا إلى كيفيتها الصحيحة إلا حينما صلّوا مع الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - فعلاً ، وشاهدوا هيئة ركوعه وسجوده ، الأمر الذي عبروا عنه بقولهم: «وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء»[١] ، إنهم علموا من القرآن الكريم أن الصلاة شغل المؤمن المفضل ، ووظيفته الحبيبة الأثيرة ، ولكنهم لم يتمكنوا من تقدير مدى شغف المؤمن بها وحنينه إليها ، ورغبته فيها ، ما داموا لم يسمعوا لسان النبوة - على صاحبها الصلاة

(١) رواه أبو داود ، والترمذي.

والسلام ـ يقول: «وجُعِل قرةُ عيني في الصلاة»[١] ويقول بلهجة ملؤها الحب والحنين والولوع الزائد والهيام البالغ: «يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها»[٢] وكذلك لم يتمكَّنوا من إدراك عمق الصلة بين المسجد وقلب المؤمن، حتى سمعوا في شأن صالحي الأمة: «ورجل قلبه معلَّق بالمساجد»[٣]، وقد وجدوا القرآن الكريم يرغِّب في الدعاء، ويدعو إلى الابتهال والتضرع إلى الله، مرة بعد أخرى، ووجدوه يبدي لومه وعتابه على الذين يستكبرون عن الدعاء، وكانوا يعرفون مفهوم التضرع والابتهال، لكنهم لم يكتنهوا هذه الحقيقة كلها إلا عندما شهدوا النبي ﷺ يقول وقد وضع في «بدر» جبهته على الأرض: «اللهم أنشد عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد»[٤]، وشهدوا كيفية القلق والاضطراب التي لم يسع أبا بكر أن يتحمل رؤيتها، حتى قال له: «حسبك» إنهم كانوا يعرفون جيداً أن لبَّ الدعاء وجوهره هو التضرُّع والاعتراف بعبوديته، وعجزه وفقره، وضعفه وقلة حيلته، وكلما كان الدعاء حاملاً لهذه الروح، زاخراً بهذه الحقيقة، كان أكثر قيمة وأهمية لكنهم لم يعرفوا حقيقة الاعتراف بالعبودية والعجز والتضرع،

(١) رواه النسائي.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) متفق عليه.
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، المجلد الثاني.

والاطراح على عتبة المولى الكريم ، ما لم يسمعوه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يقول في عرفات :

«اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، لايخفى عليك شيء من أمري ، وأنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقرُّ المعترف بذنبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عبرته ، وذلَّ لك جسمه ، ورغم لك أنفه ، اللهم لاتجعلني بدعائك شقياً ، وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين»[١] .

كان خلقه القرآن :

إنهم رأوا القرآن الكريم يقرر أن الدنيا ظل زائل ، وأن الآخرة هي دار القرار ، وكانوا يحفظون ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت : ٦٤] ، إلا أنهم إنما عرفوا حقيقة ذلك وتفسيره بالواقع العملي من حياته صلى الله عليه وآله وسلم ، وفهموا ـ من أسلوب حياته وحياة أهل بيته ـ معنى كون الآخرة هي خيراً وأبقى ، وأنه كيف ينبغي أن تكون عيشة المؤثرين للآخرة على العاجلة ، والمؤمنين بـ «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» وحياتهم العائلية ، وحينما كانوا يسمعون ـ بجانب

(١) كنز العمال ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

شهودهم هذا المنهج للحياة ، وهذا الموقف من الدنيا ، وهذا الترغيب المجمل ـ أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، عن مصائب جهنم وشدائدها ، وعن نعيم الجنة ولذائذها ، كان ينشأ فيهم مزيج من الخوف والشوق ، وتتمثل الجنة وجهنم أمامهم كل وقت ، وكأنهم يشاهدونهما بأم أعينهم.

وكذلك كانوا يعرفون معنى أمثال كلمات الرحمة ، والتواضع ، والرفق ، والخلق ، وما إليها من التعليمات والتوجيهات ، فقد كانوا أبناء اللغة ، وكانوا متعمقين في القرآن ، لكنهم لم يعرفوا مدى سعة هذه الكلمات ، وطريق تطبيقها في الحياة العملية والعمل بها ، في واقع الحياة عملاً صحيحاً ، إلا عندما شهدوا النبي ـ ﷺ ـ يعامل الضعفاء والعجزة ، والأطفال والنساء ، واليتامى والفقراء ، والشيوخ ، وعامة رفاقه وأصحابه ، وخدمه وأهل بيته ، وسمعوا أقواله ووصاياه بهذا الخصوص ، قد عرفوا تعاليم القرآن في صدد أداء حقوق عامة المسلمين ، لكن هناك أشكالاً وصوراً لهذه الحقيقة قد لا تخطر من كثير من الناس على بال ـ مثل عيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، وتشميت العاطس ـ ولو خطرت لما عرفوا لها قيمة ، وكذلك جاء في القرآن الكريم تعاليم مؤكدة فيما يتعلق بالإحسان وحسن السلوك مع أهل الحقوق ، والبر بالوالدين ، ولكني أتساءل كم من أساتذة الأخلاق وعلماء النفس والتربية كان لهم أن يهتدوا إلى هذه المكانة السامية الفذة ـ في شأن البر بالوالدين والإحسان إلى أهل الحقوق ـ التي أشار إليها الحديث

النبوي في تنويه وإشادة: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي»[١] ، وكم من أذهان كان لها أن تتوصل إلى تلك المعاني السامية للوفاء والكرم ، التي تكشف عنها هذه الرواية: «وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صدائق خديجة»[٢] .

هذا قليل جداً من كثير من أمثلة قسم الاجتماع والأخلاق في الحديث النبوي الشريف ، تدل على مدى اهتمام الحديث بشتى شعب الحياة ، والتعاليم الجديدة الطريفة فيما يتصل بها ، وبذلك فهو «حجر الفلاسفة» للإنسانية (إن لم يكن في هذا التعبير إساءة أدب) ، ونعمة لاتقدر بثمن ، ولا تشترى بمال .

لا بد من مناخ مناسب وبيئة متهيئة للأحكام:

إن التجارب الطويلة المتصلة التي مرَّ بها تاريخ الأديان والأقوام ، تؤكد أن مجرد الأمر القانوني ، والضابطة الرسمية ليسا بكفيلين بأن يضيفا على عمل أو نشاط ، مسحة من الروح والكيفيات المطلوبة ، ولا تستطيعان أن تنشئا المناخ الذي لا بد منه ، حتى يجيء العمل مؤثراً مثمراً منتجاً . فمثلاً: إن مجرد الأمر المجمل بإقامة الصلاة لا ينشىء تلك النفسية المؤمنة ولا توجد تلك البيئة المناسبة من أجل صيانة روح الصلاة وهيكلها ، والحفاظ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه .

(٢) متفق عليه .

عليها ، ومن أجل ظهور آثارها الروحانية والنفسية ، والعقلية والاجتماعية ، والخلقية والدينية ، إن ذلك يستوجب مبادىء وأصولاً ، وإرشادات وتعليمات ، تضفي على العمل روعة وقيمةً وتهبه تأثيراً ووقعاً ولذلك تطلب القرآن الكريم بدوره للصلاة ، الوضوء والطهارة ، والشعور والتعقل ، والخشوع والخضوع ، والسكوت والقنوت ، والجماعة.

غير أنه لا يخفى على العاقل الواعي أنه كلما كانت الصلاة مستوفية ـ بقدر ضروري وعلى صورة ممكنة التطبيق ـ للآداب والفضائل وإعداد الأرضية والتمهيدات الخارجية ، كان ذلك أقوى على إيجاد جو تستطيع فيه الصلاة أن تجيء بخصائصها ونتائجها الروحانية والاجتماعية والخلقية ، وإن الدارسين للحديث والسيرة والراسخين فيهما يعلمون أن عمل النبي ﷺ ، وتعليماته وإرشاداته قد زادت في هذه الناحية زيادات قيمة وجيهة عادت بها الصلاة وسيلة أمضى إلى تزكية النفس ، وتربية الأخلاق ، والإنابة إلى الله ، والانقطاع عن الدنيا إلى الآخرة ، وإلى تعليم الأمة وتربيتها وتوعيتها ، وتوحيدها وتنسيقها وجمع شملها.

مثلاً : التركيز على نية الوضوء والإشادة بفضلها واستحضارها ، وفضل الخطوات الماضية إلى المساجد ، والدعاء الذي يدعى به في الطريق، وأدب الدخول في المسجد، وتحية المسجد ، والسنن الراتبة ، وفضل انتظار الصلاة ، وثواب الصلاة مع الجماعة ، وثواب الأذان والإقامة ، وفضل الإمامة وعظمتها ، ومكانتها

وأحكامها ، والتأكيد على اتباع الإمام في أعمال الصلاة ، وتسوية الصفوف ، وفضل الحِلَقِ المنصرفة إلى التعليم والتعلم في المسجد ، وحِلَقِ الذكر و العبادة ، وآداب الخروج من المسجد ، والدعاء الذي يدعى به عند ذاك ، وما إلى ذلك ، ومن الواضح أن الصلاة تأتي ـ بعد الأخذ بهذه الآداب والفضائل والتعليمات ـ أقوى ذريعة إلى التزكية والإصلاح ، والتعليم والتربية ، والإنابة والانقطاع إلى الله ، وأضف إلى ذلك كله ما ذكره الحديث ـ في اهتمام أي اهتمام ـ من قصة كيفية صلاة النبي ﷺ ، وهيامه بالصلوات النافلة ، وانهماكه عند تلاوة القرآن الكريم ، وانظر إلى أي درجة تبلغ صلاة الأمة بهذه المجموعة الكريمة ، من الآداب والتعليمات ، وأن أيَّ جوٍّ نفسيٍّ روحانيٍّ ينشأ ، وقس على ذلك الصوم والزكاة ، والحج ، وانظر في آدابها وفضائلها ، وما أثر من أقوال النبي ﷺ ، ووقائع حياته في شأنها ، وإلى أي مدى تبقى فعاليتها وقوتها إذا جردت عن هذه الآداب والفضائل وفصلت عن الجو الذي يكونه له الحديث ، وإلى أي مدى تبقى صالحة لإثارة العواطف وإشعال الشوق ، وإيقاد جمرة الذوق ، وبعث الروح ، وشحن بطّارية القلب وشحذ العقول والأذهان ، وإعطاء قوة التماسك والاستقامة ، وإيجاد مجتمع جديدٍ صالحٍ تسري فيه روح العبادة والتقوى ، والخشية والإنابة؟!.

والواقع أن وقائع حياة النبي ﷺ المباركة ، وإرشاداته وتعاليمه ، تخلق ذلك الجو الذي تخضر فيه شجرة الدين ، وتورق

وتثمر ، إن الدين ليس مجموعة من الضوابط الخلقية الجافة ، إنه لا يبقى حياً بدون العواطف والروح والوقائع ، والأمثلة العملية وخير مجموعة موثوق بها لهذه العواطف والوقائع ، والأمثلة العملية هي : مجموعة الحديث النبوي الذي أصبحت من خصائص الأمة الإسلامية التي لا يشاركها فيها أمة من أمم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأصحاب ديانة من الديانات السماوية التي لا يزال بقايا أتباعها والمنتمين إليها ـ على اختلاف أنواعهم ومستوياتهم ـ على وجه الأرض .

الديانات القديمة ضيعت أخبار حياة أنبيائها وسيرهم وأقوالهم الصحيحة ، وملأت الفراغ بقصص عظمائها :

وهذه الديانات ـ من يهودية ومسيحية ومجوسية وبوذية وبرهمية ـ لم تلبث أن فقدت روحها وقوتها ، وصلاحيتها للحياة والبقاء فضلاً عن النمو والازدهار ، لأنها لم تعد تحتفظ بأخبار حياة أنبيائها الموثوق بها ، التي تجدد الإيمان واليقين ، وتبعث الروح ، وتنفخ الحياة ، ولم يتيسر لهذه الديانات ذلك الجو النفسي الروحاني ، الذي يتقدم فيه أتباعها روحياً ودينياً ، ويقاومون به المغريات المادية وغوائل الشيطان والنفس .

وأخيراً إنهم شعروا بالحاجة إلى ذلك فإنها حاجة فطرية ، فملؤوا هذا الفراغ بقصص حياة كبار أتباع الديانات ، وأخبار «أحبارها ورهبانها» وبما دار في مجالسهم من حديث وحوار ، وما

روي عنهم من أحاديث وأخبار ، وأثر عنهم من أقوال وآثار .

وهنا تألفت لنفس هذا الغرض صحف من تلمود[١] ، عكف عليها اليهود تلاوةً وشرحاً ومطالعةً ودراسةً ، حتى غطت على التوراة نفسها ، ونقل من أقوال علماء اليهود ما يرجحها على صحف العهد القديم ، وقد جاء فيها ـ بطبيعة الحال ـ وبتأثير العقلية اليهودية الضعيفة ، والمجتمع اليهودي المنحط الخاضع للتأثيرات الأجنبية ، الشيء الكثير من نسج الخيال وضعف الاعتقاد وما ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

ولجأ المسيحيون بدورهم إلى تأليف كتب وإضافتها إلى صحف العهد الجديد ، ككتاب «أعمال الحواريين» و«رسائل بولس» و«رسائل بطرس» و«رسائل يوحنا» ، وككتاب «مشاهدات يوحنا» .

وهام البراهمة وأتباع الديانة الهندية القديمة، بكتاب «كيتا» (GEETA) الذي يحتوي على أقوال أحد عظمائهم ، «سري كرشن» (SRI KRISHNA) ورامائن (RAMAYANA) حكايات إلههم راما (RAMA) وملحمة «مها بهارت» وغيرها من كتب

(١) اسم عام للمثنا والجيمارة ، يحتوي على الشريعة الشفاهية ، وتقليدات أخرى لليهود ، ونسخ التلمود ـ وأكثرها في ١٢ مجلداً بقطع كامل ـ تحتوي على أهم التفاسير والحواشي ، وهي كثيرة جداً (دائرة المعارف للبستاني) وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية : «أن التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود » jewish encyclopadia vol. xl and xll p.569 - 690.

القصص والملحمات ، وكذلك كان شأن المجوس الفرس بشرح «أوستا» الذي يسمى «رندا فيست» .

وقد عجزت هذه الكتب كلها عن العودة بهذه الشعوب المتدينة والديانات القديمة إلى تعاليم دعاتها الأولين ، وتصوير حياتهم وسلوكهم واتجاهاتهم الأصيلة ، وعن إثارة عاطفة التقليد لحياتهم والتأسي بأسوتهم ، والغيرة على دعوتهم وعقيدتهم ، بل أساءت إليها أكثر مما أحسنت ، وكان السبب الرئيسي في اعتلال ذوقها الديني ، وانحراف فطرتها ، وإغراقها في التقديس والتأليه ، والخضوع الزائد لما كان أمعن في الخيال ، وأبعد عن الحقيقة ، وأشد منافاة للفطرة السليمة ، وكان أثرها بعيداً وعميقاً ولا يزال ، في آداب هذه الأمم وعقليتها ، واجتماعها وميولها ورغباتها وحولت هذه الديانات بالتدريج مجموعة من البدع والخرافات والتأويلات الباردة ، والتفسيرات الجديدة المتطرفة ، تلاشت فيها تعاليم هذه الديانات الأصيلة كما تتلاشى قطرة من خل في اليم .

مقارنة سريعة بين سير الأنبياء السابقين ومؤسسي الديانات ، وبين الحديث والسيرة :

وقد أصبح إفلاس هذه الأمم والديانات في سيرة أنبيائها ، وأخبار حياتهم مقررة لا يختلف فيها اثنان[١] ، وإذا قارن الإنسان

(١) ليراجع للتفصيل «الرسالة المحمدية» للعلامة الكبير السيد سليمان الندوي ، المحاضرة الثانية ، ص/ ٤٦ ـ ٥٠ .

بين السيرة النبوية ومجموعة السنة ودواوين الحديث النبوي وبين سير الأنبياء السابقين وما نقل في حياتهم ، رأى العجب العجاب ، وما تتحير منه الألباب ، فأكثرها توارت في ظلمات الجهل والإهمال ، والحوادث التاريخية الدامية ، وقد أدت هذه الديانات رسالتها في فترة زمنية خاصة ، ومشى في ضوئها الجيل الذي كُلِّف اتِّباعهم ، ثم لم تبق حاجة إلى الاحتفاظ بها ، وإلى أن تتوارثها الأجيال ، ويكفينا أن نستعرض حياة سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، فكان آخر الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وتنتسب إليه أمة شغفها بالعلم والتأليف ، وإفراطها في حب نبيها ، وإطراؤها له إطراءً بلغ حد التأليه والتقديس ، ولكنها لم تستطع أن تعرض على العالم إلا نتفاً من أخباره وأقواله التي لا تكون هيكلاً من حياة بشرية كاملة يقلده الإنسان في حياته الفردية ، أو يسير في ضوئه مجتمع فاضل ، وقد كان الاعتقاد السائد في العالم المسيحي قبل أيام أن «العهد الجديد» يتضمن أخبار السنوات الثلاث الأخيرة من سيرة المسيح وأخباره ، فانتهى تحقيق الباحثين وأصحاب الاختصاص في الموضوع في الزمن الأخير إلى أنها لا تتجاوز أخبار خمسين يوماً من حياته ، لا أكثر ولا أقل.

يقول القس الفاضل الدكتور شارلس اندرسن اسكات (CHARLES ANDERSON SCOTT) في مقال له في دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ، (ج/١٣ص/١٧١٠):

«ينبغي أن يتنازل الإنسان عن محاولة وضع كتاب في سيرة المسيح بكل صراحة ، فإنه لا وجود للمادة والمعلومات التي تساعد على تحقيق هذا الغرض والأيام التي توجد عنها بعض المعلومات ، لا يزيد عددها على خمسين (٥٠) يوماً.

أما الأنبياء الآخرون ، وعظماء الملل والديانات السابقة ، فيصح القول بأن أخبارهم وصور حياتهم مطمورة في ركام الماضي ، وهناك حلقات رئيسية لا يكمل بغيرها التاريخ ، ولا يتسنى بدونها الاقتداء والتقليد ، مفقودة لا يمكن البحث عنها ، والاهتداء إليها في هذا العصر المتأخر ، وهذا عين ما تقتضيه الحكمة الإلهية ومنطق الأشياء ، فالمثل الإنسانية لها أعمار طبيعية ، وحيوية محدودة فإذا انتهت لم تكن مصلحة في تناقلها ، أما ما كانت الحاجة إليه قائمة دائمة ، فبقي على اختلاف الزمان والمكان واستمر وانتشر ، وأورق وأثمر»[١].

أما الإسلام وحياة صاحب رسالته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فيختلف شأنهما عن شأن الديانات السابقة وأصحاب رسالاتها الأولين ، اختلافاً لا مزيد عليه ، فقد جاء فيها من الوضوح والتفصيل والدقة ما لا يتصور فوقه العقل الإنساني ، ولا تؤيدها التجربة الطويلة لتدوين تاريخ العظماء وتسجيل وقائعهم وحوادث

(١) ما بين القوسين مقتبس من كتاب المحاضر «النبي الخاتم» ، ص/ ١٦ ـ ١٧.

حياتهم ـ بما فيهم الأنبياء وأصحاب الرسالات ـ ونظرة عجلى في كتب الحديث والشمائل ـ فضلاً عن كتب السيرة والمغازي ـ تدلُّ على صدق ما قلنا ، وحسب القارىء أن يستعرض الأحاديث الواردة في حجة الوداع في كتب الصحاح فيعرف كيف تطيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، عند إحرامه ، ومن باشر هذا التطيب؟ ، ويعرف نوع هذا الطيب ، وطريقة إشعار رسول الله صلى الله عليه وسلم هديه ، ويعرف تفصيله وتحديده ، هل كان في الجانب الأيمن أو الأيسر ، وكيف سلت عنها الدم ، ويعرف كيف احتجم ، ويستطيع أن يحدد المنازل بين المدينة ومكة ، ويعد أيامه في السفر ، وذلك في زمان لم يعرف الناس فيه كتابة اليوميات وتدوين المذكرات ، ولا تفوته شاردة ولا نادرة ، حتى يعرف قصة خروج حية في هذا المشهد الحافل وإفلاتها من القتل ، ويعرف كل من كان رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في هذه الرحلة[١] ، ويعرف اسم الحلاق ، وكيف قسم شعره ، ومن خصهم بالشق الأيمن ، ومن خصهم بالشق الأيسر؟ ، هذا فضلاً عن خُطَبِه صلى الله عليه وآله وسلم ، يوم عرفة وفي منى ، ووصاياه التي

(١) قد استوعب صاحب «نسيم الرياض» أسماء كل من أردفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته ، فذكر نحو ثمانية وثلاثين (٣٨) رديفاً ، وزاد ابن منده على هذا العدد .

حفظت وبلغت ، وعملاً بقوله ﷺ : «ألا فليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلَّغ أوعى من سامع»(١) .

وقد اعترف بهذه الحقيقة الكتاب المنصفون من الغرب ـ والفضل ما شهدت به الأعداء ـ يقول «جون ديون بورت» في كتابه «السيرة المحمدية» عنوانه : «اعتذار من محمد والقرآن» :(APOIOGY FOR MOHAMAD AND QURAN) :

«لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين ، والذين سنوا السنن ، من يعرف الناس حياته وأحواله ، بأكثر تفصيلاً وأشمل بياناً ، مما يعرفون من سيرة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وأحواله»(٢) .

وقد ألقى ريورند باسورث اسمت (BOSWORTH SMITH) عضو كلية التثليث في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ م محاضرات عن «محمد والمحمدية» في الجمعية الملكية في بريطانيا العظمى ، قال فيها :

«أما الإسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا غمة يبهم أمرها على التاريخ ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ،

(١) اقرأ تقديم المحاضر لكتاب «حجة الوداع وعمرات النبي صلى الله عليه وآله وسلم» للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا السهارنفوري .
(٢) نقلاً من «الرسالة المحمدية» للعلامة السيد سليمان الندوي (ص ٩٨) .

كالذي يعلمونه من أمر لوثر وملتن ، وإنك لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون ، أساطير ولا أوهاماً ، ولا مستحيلات ، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، والأمر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رأد الضحى ، يتبين تحت أشعة نورها كل شيء»[(١)] .

الحديث ميزان عادل لوزن حياة المسلمين وواقعهم ، والحكم عليه في كل عصر :

ثم إن الحديث ميزانٌ عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بد منها في السنن الإلهية ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] ، فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي ، لوقعت هذه الأمة في إفراطٍ وتفريط ، واختل الاتزان ، وفقد المثال العملي

(١) الرسالة المحمدية (ص: ١٠٠) .

الذي حث الله على الاقتداء به ، بقوله : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وبقوله : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، والذي يطلبه الإنسان ويستمد منه الثقة والقوة في الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع .

الحديث وسيلة قوية للحسبة على المجتمع الإسلامي ومدرسة دائمة يتخرج فيها المصلحون والمجددون :

«ثم إن الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإصلاح والتجديد ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح ، لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بد من تقييده وتسجيله وحفظه ونشره»[1] .

وقد ظلت كتب السنة والحديث ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد ، والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية ، تلقى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح ، والفكر الإسلامي النقي ، واحتجُّوا بأحاديثه واستندوا

(١) مقتبس من كتاب المحاضر «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، (ج/ ١ ، ص/ ٩٨) الطبعة الرابعة عام ١٣٩٤ هـ.

إليها في دعوتهم ، إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغني عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص ، والإسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية ، والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة .

شهادة التاريخ لتأثير الحديث وكتب السنة في الإصلاح والتجديد :

ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه ، فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها ، على كثرة وجود الدعاة إلى الله ، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، والزهد في الدنيا والعمل بالسنة ، وطالت هذه الفترة ، غزت المجتمع الإسلامي ، الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الإسلامية ، المتبحِّرين في العلوم الحكمية والأدبيَّة ، وفي عهد غلبة الإسلام وحكم المسلمين ، بدع طريفة وتقاليد عجمية ، وأعراف دخيلة ، حتى كاد يكون نسخة من مجتمع جاهلي ، وصدقت النبوَّة المحمَّدية والحديث الصحيح : «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع»[1] وخفت صوت الإصلاح وخبا مصباح العلم .

(١) رواه الحاكم .

ومن شاء فليستعرض الوضع الديني وواقع حياة المسلمين في القرن العاشر الهجري في الهند ، القرن الذي كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية في شبه القارة الهندية ، تنقطع عن علم الحديث الشريف ومصادر السنة الصحيحة ، وكانت تعيش في عزلة عن مراكز العلم الديني ، وتدريس الحديث الشريف ، في الحجاز واليمن ، ومصر والشام ، وأصبحت مقتصرة على كتب المذهب وشروحها وتدقيقاتها وكتب الأصول والحكمة ، كيف فشت فيها البدع وعمت المنكرات ، واستحدثت أشكال متنوعة للعبادات والقربات ، وراجت سجدة التحية ، واتخذت القبور مساجد ، وأوقدت عليها السرج ، وكثرت الأعياد الدينية والاحتفالات في أيام وفاة الأولياء والصالحين ، وعمرت المشاهد وأصبحت كعبة القاصدين ، حتى قيض الله لهذه البلاد أئمة مصلحين وعلماء ربانيين، كالإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي (م١٠٣٤ هـ) الذي أنكر على شعائر الشرك ، والتقاليد غير الإسلامية الهندية إنكاراً شديداً ، وأنكر وجود البدعة الحسنة بالإطلاق وأنكر على وحدة الوجود ، ودعا إلى التمسك بالسنة ، ومحاربة البدعة دعوة واضحة مجلجلة ، وقال كلمته التاريخية المأثورة :

«نحن في حاجة إلى كلام محمد العربي صلى الله عليه وآله وسلم ، لسنا في حاجة إلى كلام الشيخ محيي الدين ابن عربي ، أو صدر الدين القونوي والشيخ عبد الرزاق الكاشي ، وإلى

«النصوص» لا إلى «الفصوص»[٤] ، إن الفتوحات المدنية أغنتنا عن الفتوحات المكية»[١] .

وشمر معاصره العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي (م١٠٥٢ هـ) عن ساق الجد في نشر الحديث الشريف ، وشرحه وتدريسه ، وتلاهما شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي صاحب «حجة الله البالغة» (م١١٧٦ هـ) وأبناؤه النجباء ، وتلاميذه النبغاء ، وقاموا بتعليم كتاب الله وسنة رسوله ، وشرح العقيدة الإسلامية الحنيفية ، ونادوا بالدين الخالص ، وقاموا بتدريس الصحاح الستة ونشرها وتقريرها في المناهج الدراسية ، حتى نفقت سوق السنة وقامت دولة الحديث في هذه الربوع البعيدة عن مركز الإسلام ، حتى أصبحت منتجعاً لرواد علم الحديث ، ومنهلاً عذباً لطالبي التوسع والتحقيق ، وقامت حركات إصلاحية من أقوى حركات الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي كله في القرن الثالث عشر ، وحسب القارىء أن يقرأ تاريخ حركة الإمامين الشهيدين السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦ هـ) الإصلاحية الشاملة[٢] ، التي جعلت البلاد غير البلاد ، والشعب غير الشعب ،

---

(١) وإشارة إلى كتاب الشيخ ابن عربي المشهور «فصوص الحكم» وكتابه الكبير «الفتوحات المكية» ، مقتبس من رسالة رقم ٢/١٠٠، مجموع رسائل الشيخ المجدد .

(٢) ليرجع للتفصيل إلى كتاب المحاضر «إذا هبت ريح الإيمان» طبع دار ابن=

وهبت بها رياح الإيمان والحماس الإسلامي ، والغيرة على دين الله وعلى عقيدته الصافية ، قوية جددت ذكريات القرون المشهود لها بالخير وأخبار الأولين ، وقد أحيت هذه الحركة الإصلاحية والدعوة إلى الدين الخالص كثيراً من السنن التي أميتت ، وقضت على كثير من البدع والمحدثات والعادات الجاهلية التي كانت لها جولة وصولة ، وذلك كله بفضل ظهور آثار السنة ونشر الحديث ، وإنني واثق بأنه إذا لم يكن وجود الكتب الستة ودواوين الحديث ، ولم يكن سبيل إلى معرفة السنن والتمييز بينها وبين البدع ، لم يكن وجود لهؤلاء المصلحين الكبار والأئمة الأعلام ، الذين يتجمل بهم تاريخ الإسلام ، من عهد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية (م٧٢٨ هـ) إلى عهد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (م١٢٠٦ هـ) ومعاصريه من المصلحين والمربين ، ومن نبغ بعده من رجال الدعوة والإصلاح ، كالعلامة محمد بن علي الشوكاني (م١٢٥٥ هـ) والأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني (م١١٨٢ هـ) وأحمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (م١٢٩٣ هـ) ، والسيد عبد الله الغزنوي الأمرتسري (الشيخ محمد أعظم الكابلي) (م١٢٩٨ هـ) والشيخ حسين علي الواني (م١٣٦٣ هـ) والشيخ غلام رسول القلعوي (م١٢٩١ هـ) وغيرهم[(١)] ، وهي قصة كثير

= كثير دمشق ـ بيروت ، ورسالة «الإمام الذي لم يوفَّ حقه من الإنصاف والاعتراف» طبع لكهنؤ والقاهرة .

(١) اقرأ تراجم أعلام الهند في كتاب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر»=

من الأقطار العربية كالعراق والشام ومصر ، وتونس والجزائر ، والمغرب الأقصى والبلاد العجمية كأفغانستان وتركستان ، إلا أننا اقتصرنا على الحديث عن الهند ، رغبة في الاختصار ، ولأن المحاضر يعرفها عن كثب لا عن كتب .

الحديث سجَّل الجوَّ الإيمانيَّ الأول وخلَّده للأجيال القادمة :

ومن دلائل كون الإسلام هو الدين الإلهي الأخير ، والرسالة الإلهيَّة الخالدة ، الباقية ، أنه لم يُمْنَ المسلمون بالعزلة الفكرية ، والارتجال العملي والسلوكي الذي مني به أتباع الديانات القديمة ، لعدم وجود الرصيد الديني ، والركيزة العلمية ، أما المسلمون فقد سجل الحديث النبوي الشريف لهم للأبد ، ذلك الجوَّ الإيمانيَّ والروحانيَّ الذي عاش فيه وتربى الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، والكيفيات النفسية والروحية التي لابست حياتهم ، وواكبتها طول الطريق ، وبذلك فقد أمكن للأجيال المتلاحقة القادمة من المسلمين ، أن تصل بقفزة واحدة إلى الجوِّ الذي تنوَّر بوجود شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، يتكلم والصحابة كلهم آذان صاغية ، وقلوب واعية ، كأن على رؤوسهم الطير ، تتجلى فيه مواقف العمل بجانب الأحكام وبجانب أشكال العمل تتمثل مشاهد العواطف والكيفيات ، يستطيع فيه المرء أن

= للعلامة عبد الحي الحسني (ج ٧ و٨) طبع دائرة المعارف ، حيدر آباد (الهند) ، ودار ابن حزم بيروت .

يقدر بدوره أن أي نوع من الأعمال والأخلاق يخلقه الإيمان ، وأن أي نوع من الحياة يوجده اليقين في الآخرة؟ إنها نافذة يستطيع المرء أن يطل منها على حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم العائلية ، ومشهد الحياة في بيته ، وأشغاله في الليالي ، وعيشة أهل بيته ، ويمكنه أن يرى مشهد سجوده بعينيه ، ويسمع دعاءه ومناجاته بأذنيه ، وهنالك هل يمكن للعيون ـ التي ترى عينيه مستعبرتين وقدميه متورمتين ـ والآذان التي تسمع «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً»[١] ، أن تمنى بالغفلة والتقصير ؟! إن العيون التي شهدت أن يمضي هلال بعد هلال ، ولا توقد نارٌ في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ورأت بطنه معصوباً بحجرين ، وإن الحصير قد أثر في ظهره ، ورأت أنه لا يقصد فراشه في الليل حتى يفرق الذهب والفضة المتبقيين ، ولا يقرُّ له قرار حتى ينتهي من ذلك ، ورأت عند مرض وفاته أن الزيت لإنارة السراج يستقرض من بيت الجار ، وكيف تغيب عنها حقيقة الدنيا ، إن الذي شهد كيف يخدم أهل بيته ، ويحنو على صغاره ، ويتسامح مع خدمه ، ويعطف على رفاقه ، ويرحم أصحابه ، ويرفق بأعدائه ، أنى يقصد سواه ليتلقى درس الإنسانية الكاملة ، ويتعلم مكارم الأخلاق؟!

(١) متفق عليه .

المجتمع الإسلامي بألوانه المختلفة والحياة المتنوعة في مرآة الحديث :

وإن هذا الجو لا يستفيد فيه المرء من شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدها وإنما سيجد أبواب بيوت الصحابة مفتوحة على مصراعيها ، وسيشهد ، دون ما عسر وكلفة ، حياة بيوتهم وأوساطها ، يراهم رهباناً في الليل ، فرساناً بالنهار ، ويرى مشاغلهم في الأسواق ، وتفرغهم في المساجد ، ويرى فيهم التواضع والإيثار ، والانشغال بالله عن النفس وإغراء النفس الأمارة بالسوء ، وطاعتهم الكاملة غالباً ، وسقطاتهم البشرية أحياناً ، هناك تتمثل أمام العين قصة إيثار أبي طلحة الأنصاري ، وقصة تخلف سيدنا كعب بن مالك من غزوة تبوك ، وامتحان حبه للرسول ووفائه للإسلام ، وشهادته على نفسه ، واستقامته في هذه المحنة ، ثم توبة الله عليه ، توبة مقرونة بالتوبة على الرسول والخارجين في الغزوة ، تكريماً له ، وتطييباً لقلبه ووقايته من «مركب النقص» ، وكذلك قصة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وموقفها الحساس الدقيق في قصة الإفك ، وإيمانها وغيرتها وعزة نفسها ، ثم نزول براءتها من فوق سبع سموات ، وموقف أبي بكر الصديق في هذا الموقف الحسَّاس الدقيق المثير للغيرة والطبيعة البشرية ، وصدقه واستقامته فيه ، وعودته إلى البِرِّ بمن آذاه في أعز شيء إليه ، وبالجملة فإن ذلك جوٌّ طبيعي تتجلى فيه الحياة بحقائقها المتنوعة ، وألوانها المختلفة والطبيعة البشرية بمظاهرها وخصائصها ، وحواها

الحديث النبوي الشريف ، وسجلها باقية إلى يوم القيامة .

وبقاء صورة العهد النبوي ـ بجانب القرآن الكريم ـ مسجلة ، وبقاء حديث صاحب النبوة ، وصورة جو عهدها ، معجزة من معجزات الإسلام ، ومزية من مزاياه ، التي لا تشاركه فيها ديانة ، إن الدين الذي جاء ليبقى إلى يوم القيامة ويقدم للأجيال القادمة نماذج عمليَّة ويوفِّر دواعي العمل ونوازعه ، ويغذي العقل والقلب في وقتٍ واحد ، لا يمكنه أن يعيش بدون الجوِّ ، وهذا الجو قد بات مصوناً محفوظاً بفضل الحديث .

عناية المسلمين بتدوين الحديث وخدمته ، تقدير العزيز العليم :

إن دراسة تاريخ تدوين الحديث تدلُّ دلالةً واضحةً على أن ذلك لم يكن مصادفةً ، أو بدعةً أحدثها الناس في العصور الأخيرة ، إن عناية الصحابة بكتابة الحديث على العهد النبويّ ، وتقييد عدد وجيه من الحديث ، ثم عناية التابعين ـ منذ أواخر عهد الصحابة بالذات ـ بتدوين الحديث وترتيبه ، وتقاطر طلاب العلم من خراسان وتركستان ، وهيامهم بجمع الحديث ، وشغفهم باستظهاره ، وحفظه ، وذاكرتهم القوية المدهشة ، وعزيمتهم وعلو همتهم ، ثم وجود المجتهدين في فن أسماء الرجال وفن الرواية ، الذين كانت لهم قدم راسخة وملكة قوية ، ونظر ثاقب في هذه الناحية ، ثم تفرغهم لذلك ، وانقطاعهم إليه ، وانشغالهم به عن نفوسهم وملذاتهم ، ثم إقبال الأمة على الحديث إقبالاً كلياً ، وشغفها

بحديث رسولها شغفاً لا يوجد له نظير في تاريخ الأمم ، وقيامها بحفظه ودراسته ونشره قياماً لا مزيد عليه ، واشتغالها به من نواح شتى[١] ، إن ذلك كله دليلٌ واضحٌ على أن الله تعالى كان يريد ـ كجمع القرآن ـ صيانة «صحيفة هذه الحياة» ، وبفضل ذلك بقي امتداد الحياة المباركة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وظلت الأمة في كل دور من أدوارها تتمتع بذلك التراث الروحاني والطبيعي ، والعلمي والإيماني ، الذي سعد به الصحابة رضي الله عنهم مباشرة.

توارث أمة للذوق والمزاج الإسلامي :

وعلى ذلك فلم يجر التوارث في خصوص العقائد والأحكام ، وإنما جرى كذلك في الذوق والمزاج ، والعقلية والنفسية ، وبفعل الحديث ظل ذوق الصحابة ينتقل من جيل إلى جيل ، ومن عهد إلى عهد ، ومن طبقة إلى طبقة ، ولم يأت في تاريخ الأمة الطويل حين من الدهر ، فُقِدَ فيه هذا الذوق كلياً ، فقد وُجِدَ في كل عصر رجال يعدُّون بحق من حاملي ذوق الصحابة ، رغبة في العبادة ، وتقوى من الله وخشية منه ، واستقامة وعزيمة ، وتواضع واحتساب نفس ،

(١) راجع للتفصيل كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (ج/ ١ ، عنوان: «المحدثون وعلو همتهم» ، ص ٢٠٢ ـ ١٠٣) والكتاب القيم «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للدكتور مصطفى السباعي ، عنوان: «تدوين السنة» (ص ١٢١ ـ ١٢٥).

وحنين إلى الآخرة ورغبة عن الدنيا وعناية زائدة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكراهية شديدة للبدع ، ونزعة قوية إلى اتباع السنة ، الأمر الذي لا يحصل إلا بالانشغال بدراسة الحديث والعكوف عليه ، تعلماً وفهماً ، وتعليماً وتدريساً ، وشرحاً وتدويناً ، أو بملازمة أولئك الذين اقتبسوا من مشكاة النبوَّة ، وكان لهم نصيب غير منقوص من هذا الذوق عبر عصورها ، منذ القرن الأول إلى هذا التراث النبويِّ وظلت الأمة تتوارث هذا القرن الرابع عشر الهجري ، رغم طابع المادِّيَّة والتدهور الذي يتسم به هذا العهد ، ولا تزال هذه الثروة القيِّمة باقية ، والاستفادة منها قائمة .

دافع جديد إلى إنكار الحديث والسنة :

وقد علَّل العالِمُ الغربي المهتدي محمد أسد (ليو بولد ويس سابقاً) التنصل من السنة ونزعة إنكار الحديث ـ التي ظهرت طلائعها في الفترة الأخيرة ـ في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، وقوة سيطرة الحضارة الغربية ، بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية وقيمتها وأساليب حياتها و«موضاتها» ، وبين السنة والجمع بين الحياة التي تقوم على الحب العميق والثقة التامة بصاحب الرسالة الإسلامية ، ومصدر السنة النبويَّة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين تقديس الحضارة الغربيَّة والنظر إليها كآخر ما وصل إليه العلم الإنساني ، ولعل هذا هو السبب الذي يحث بعض القادة السياسيين والحكام ، في بعض الشعوب الإسلامية والأقطار العربية ، على الهجوم على السنة وإنكار الحديث ، يقول محمد أسد :

«وفي هذه الأيام التي زاد فيها نفوذ المدنية الغربية في البلاد الإسلامية ، نجد سبباً جديداً يضاف إلى الموقف المستغرب الذي يقفه من نسميهم «متنوري المسلمين» من هذه القضية ، ذلك هو قولهم أنه من المستحيل أن نعيش على سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن نتبع الطريقة الغربية في الحياة في آن واحد ، ثم إن الجيل المسلم الحاضر مستعدٌ لأن يكبر كل شيء غربي ، وأن يتعبد لكلِّ مدنيَّة أجنبية ، لأنها أجنبية ، ولأنها قوية وبراقة من الناحية المادية ، هذا التفرنج كان أقوى الأسباب التي جعلت أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ، وجعلت جميع نظام السنة معها لا تجد قبولاً في يومنا هذا ، إن السنة تعارض الآراء الأساسية التي تقوم عليها المدنية الغربية معارضة صريحة ، حتى إن أولئك الذين خلبتهم الثانية (المدنية الغربية) ، لا يجدون مخرجاً من مأزقهم هذا إلا برفض السنة ، على أنها غير واجبة الاتباع على المسلمين ، ذلك لأنها قائمة على أحاديث لا يوثق بها ، وبعد هذه المحاكمة الوجيزة يصبح تحريف تعاليم القرآن الكريم ، لكي تظهر موافِقَةً لروح المدنية الغربية أكثر سهولة»[1] .

مؤامرة على الإسلام ، ستبوء بالخيبة والإخفاق :

والذين يحاولون أن يحرموا الأمة هذا المنبع الفياض للحياة

---

(١) «الإسلام على مفترق الطرق» (ص ٩٥ ـ ٩٦) ترجمة الدكتور عمر فروخ ، طبع دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٥١ م .

والهداية والقوة ، بإثارة الشك والارتياب في حجية الحديث وقيمته ، وزحزحة ثقتها به ، إنهم لا يدرون مدى الضرر والخسارة التي يلحقونها بها ، إنهم لا يدرون أنهم يكونون بذلك قد جعلوا أمتهم «محرومة الإرث» محذوفة الصدر «مقطوعة الأصل» ، حائرة تائهة ، كما صنع أعداء اليهودية والمسيحية ، أو حدثان الدهر معهما ، فلو أنهم يصنعون ذلك عن شعور ووعي ، لما كان لهذه الأمة ودينها عدو ألد منهم وأحنق ، لأنه لا تعود إذاً هناك وسيلة إلىٰ إنشاء هذا الذوق الديني من جديد ، الذوق الذي كان يمتاز به الصحابة رضي الله عنهم والذي لا يمكن أن يوجد إلا بصحبة النبي ﷺ مباشرة ، أو بواسطة الحديث الذي هو صورة حية لذلك العهد ، ومذكرة ناطقة للحياة النبوية تزخر بكيفيات العهد النبوي ، تتعطر بأريجه وتفوح برياه .

وقد أحسن الأستاذ محمد أسد في كتابه القيِّم «الإسلام علىٰ مفترق الطرق» تشخيص هذا العداء للإسلام ، ومدىٰ خطر هذه المؤامرة التي تحاول تجريد المجتمع الإسلامي من هذه القوة التي لا عوض عنها ، وهذه الثروة التي لا مثيل لها ، فيقول :

«لقد كانت السنة الهيكل الحديدي الذي قام عليه صرح الإسلام ، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما ، أفيدهشك بعدئذ أن يقوض ذلك البناء ، كأنه بيت من ورق»[١] .

(١) الإسلام على مفترق الطرق (ص/ ٨٥) .

ويتحدث عن تأثير إنكار الحديث وضرورة اتباع السنة ، فيذكر نتيجة ذلك ويقول :

«ولكن تلك المنزلة الممتازة التي للإسلام ـ علىٰ أنه نظام خلقي وعملي ، ونظام شخصي واجتماعي ـ تنتهي بهذه الطريقة (يعني بإنكار الحديث وضرورة اتباع السنة) إلىٰ التهافت والاندثار»(١) .

وبالرغم من هذه المحاولات الطائشة للتشكيك في حجية الحديث والدعوة إلىٰ إنكار السنة التي ظهرت علىٰ مستويات مختلفة وبدوافع متنوعة ، عقائدية ، وسياسية ، وشخصية ، وللهروب من مسؤولية العمل بالأحكام الشرعية ، والالتزام الديني ، في فترات مختلفة(٢) ، لم يزل شعار السنة عالياً ، والدعوة إليها قائمة ، وقد عجنت بها طينة المجتمع الإسلامي ، وتغلغلت في أحشائه ، وجرت منه مجرىٰ الروح والدم ، حتىٰ أصبح من المستحيل تجريده منها ، وإقامة مجتمع جديد علىٰ مجرد الدعوة إلىٰ القرآن الذي اقترن بعمل الرسول ﷺ وشرحه له وتفصيل ما جاء فيه مجملاً ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤] . ولا يزال الحديث النبوي الشريف معتنى به ، دراسةً وتفهماً وتحقيقاً

(١) نفس المصدر (ص/ ٩٥) .

(٢) ليراجع للتفصيل الباب الثاني من كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» في الشبه الواردة على السنة في مختلف العصور (ص/ ١٤٣ إلى ١٥٣) .

ونشراً لمصادره التي لم تر ضوء الشمس بعد ، ولا تزال الحسبة قائمة على المجتمع الإسلامي ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والرد على البدع والمحدثات على قدم وساق ، بما في ذلك من تقليد الحضارة الغربية التقليد الأعمى ، والردة العقائدية والفكرية والحضارية ، وقبول المدنية الغربية برمتها وبحذافيرها ، وعلى علاتها ، ومخالفاتها للحياة الإسلامية ، بفضل الاحتكام إلى السنة والرجوع إلى الحديث ، تحقيقاً لما أخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها»[١] ، وفي حديث آخر: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»[٢] .

إن شأن المشككين في حجية الحديث والحاملين للواء إنكار السنة ، مع الحديث النبوي والسنة المطهرة ، كما حكاه الشاعر العربي القديم:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل



(١) رواه ابن ماجه.
(٢) رواه الحاكم.

لمحة من تاريخ تدوين الحديث

كانت العرب أمَّة أمِّيَّة ، كانوا لا يعرفون الكتابة والتعليم .

وذكرهم القرآن بهذا الوصف فقال عز وجل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٣] وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ولكن كانت ذاكرتهم قويةً نادرةً . فكانوا حافظين لأنسابهم وأحداثهم التاريخية ومآثرهم الحربيَّة والخطب والقصائد الطويلة . فلما نزل القرآن حفظوه في صدورهم ، واهتم النبي ﷺ بكتابته مع ذلك ؛ لأنه معجز في الألفاظ والمعاني والبيان . ولكن النبيَّ ﷺ أنكر على كتابة أحاديثه في بداية أمره وقال : «لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه ، وحدِّثوا عنِّي ولا حرج ، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[1] وفي الظاهر كان سببه أنه ﷺ كان قد أعطِيَ جوامع الكلم التي كانت يندر نظيرها في الإيجاز

(١) صحيح مسلم باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم .

اللفظي والمعنوي ، فخاف أن يلتبس القرآن بالحديث ، وأن يقع خلط بين الوحي السماوي ، وكلام النبي كما وقع في الديانات السابقة .

ولكنه لما طال الزمان وقدُم العهد بنزول الوحي وذهب خوف الالتباس والخلط ، أجاز النبي ﷺ كتابة الحديث بل أمر بذلك في بعض الأحيان . فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ أنه كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول الله ﷺ فيسمع من النبي ﷺ فيعجبه ولا يحفظه فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إني لأسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه فقال رسول الله ﷺ : «استعن بيمينك وأومأ بيده الخط»[١] وروى الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أنه أمره النبي ﷺ بالكتابة فقال : «قيدوا العلم بالكتابة»[٢] . فامتثل بذلك عبد الله وواظب عليه حتى صار كتاباً ضخماً ، وسماهُ «الصادقة» فالأحاديث التي تروى برواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كلها من هذه الصحيفة .

واهتم بالكتابة غير عبد الله من الصحابة : جابر بن عبد الله . يقول الإمام أحمد بن حنبل عن صحيفته : «كان قتادة أحفظ أهل

(١) جامع الترمذي باب ما جاء في الرخصة في كتابة العلم .
(٢) منتخب كنز العمال (٤/ ٦٩) .

البصرة لا يسمع شيئاً إلاَّ حفظه قرأت عليه صحيفة جابر فحفظها»[١].

وذكر الحافظ ابن حجر صحيفة سمرة بن جندب في ترجمة ابن سليمان في كتابه تهذيب التهذيب وهو يقول: روى عن أبيه نسخة كبيرة. وذكر الترمذي في العلل بعض صحائف عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وروى ابن عبد البر عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «أنه أخرج كتاباً وحلف أنه من خط أبيه بيده»[٢].

فهذه بعض الصحائف للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ جمعوا فيها أحاديث رسول الله ﷺ فهذا أول جمع للحديث النبوي الشريف.

وعُنِيَ بذلك بعدهم التابعون لهم فجمعوا الأحاديث وكتبوها وأكثروا فيها ومن أشهر صحائفهم وأهمها: صحيفة همام بن منبه جمع فيه همام روايات أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ[٣]، ولكن كان أكبر همِّهم حفظها لأنهم كانوا مطبوعين عليه مخصوصين بذلك.

وفي نهاية القرن الأول لما انقرض عهد الصحابة رضي الله عنهم، ودخلت الأعاجم في الإسلام بعاداتهم وتقاليدهم مست الحاجة إلى كتابة الحديث وجمعه وتدوينه.

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي، ترجمة قتادة.
(٢) جامع بيان العلم باب ذكر الرخصة في كتابة العلم.
(٣) وقد طبعت بتحقيق الدكتور هبة الله الحيدر أبادي المقيم بباريس.

وقد قدَّر الله أن يقوم بما يطلبه الزمان ، وبما يتوقف عليه مستقبل هذه الأمة ، التشريعي ، والعملي ، والعلمي إلى حد كبير خليفة المسلمين في عصره ، الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فكان أول ما عني به ـ بعد ما تقلد الخلافة ـ هو علم الحديث. فكانت له هذه السعادة واللفتة الكريمة العميقة ، وبعد النظر وثقوب الفكر في الإشارة والتوجيه فإنه قد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث وأوعية العلم في عصره أبي بكر بن محمد بن حزم : «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء». وأشار عليه بالعناية الخاصة بما جمعت عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية ، وما جمعه قاسم بن محمد بن أبي بكر لأهميتهما ، ولم يكتف بأبي بكر بن حزم ، بل كتب إلى عماله بالأقاليم : «انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه»[١].

وكذلك كتب إلى محمد بن شهاب الزهري للجمع والتدوين ، يروي ابن عبد البر أنه يقول : أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً[٢] فهذا يدل على أنه أول من دون الأحاديث ، وهذا هو رأي مالك رحمه الله. كما روى ابن عبد البر عنه «أول من دون العلم ابن شهاب».

---

(١) تاريخ أصبهان لأبي نعيم.

(٢) جامع بيان العلم ، باب ذكر الرخصة في كتاب العلم.

ولما كتب عمر بن عبد العزيز إلى علماء الآفاق امتثل أمره مكحول في دمشق ، والشعبي في الكوفة ، فذكر ابن النديم كتاب السنن لمكحول في فهرسته . ويقول السيوطي عن الحافظ ابن حجر في التدريب : أما جمع حديث إلى شغله فقد سبق إليه الشعبي فإنه روي عنه إنه قال : هذا باب من الطلاق جسيم وساق فيه أحاديث[١] .

وهذا ما دوِّن من الأحاديث في القرن الأول ، وازدهر هذا الفن في القرن الثاني ، حتى جمعت آثار الصحابة والتابعين مع الأحاديث المرفوعة ، وأول كتاب رتب على الأبواب الفقهية ، هو كتاب الآثار للإمام أبي حنيفة رحمه الله . يقول السيوطي عنه :

من مناقب أبي حنيفة التي تفرَّد بها أنه أول مَنْ دَوَّن علم الشريعة ورتبه أبواباً ، ثم تبعه مالك بن أنس في الموطَّأ ولم يسبق أبا حنيفة أحد[٢] .

ويقول عن هذا الكتاب صدر الأئمة المكي : وانتخب أبو حنيفة رحمه الله الآثار من أربعين ألف حديث[٣] . وقد روى عنه كتاب الآثار كثير من تلاميذه منهم أبو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وزفر ، وحسن بن زياد رحمهم الله . وقد طبع هذا الكتاب برواية

(١) تدريب الراوي ص ٣٤ طبع مصر .
(٢) تبييض الصحيفة ص ٣٦ طبع الهند .
(٣) مناقب الإمام الأعظم (١٠/ ١٠٥) .

محمد بن الحسن والقاضي أبي يوسف.

ثم جاء مالك رحمه الله فصنف كتابه الموطَّأ وتلقته الأمة بالقَبول. يقول الحافظ في مقدمة فتح الباري: فصنف الإمام مالك الموطَّأ وتوخَّى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومَنْ بعدهم[(١)] ويقول الذهبي: إن للموطَّأ لوقعاً في النفوس ومهابةً في القلوب لا يوازيها شيء. حتى قال الشافعي: «ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك». وإنما قال ذلك قبل وجود كتابي البخاري ومسلم كما قال ابن الصلاح في مقدمته.

وفي هذا العصر صنف سفيان الثوري كتابه الجامع وأخذه الناس بالقبول في عصره. ولما أقبل البخاري على العلم سمع جامع سفيان وحفظه. يقول أبو داود السجستاني عن الجامع: «إنه أحسن ما وضع الناس في الجوامع»[(٢)].

وفي هذا القرن دونت المسانيد، يقول الحافظ ابن حجر: «فصنف عبد الله بن موسى العباس الكوفي مسنداً، وصنف مسدد بن مسرهد البصري مسنداً، وصنف أسد بن موسى الأموي مسنداً، وصنف نعيم بن حماد الخزاعي نزيل مصر مسنداً، ثم اقتفى الأئمة بعد ذلك أثرهم فقلَّ إمام من الحفاظ إلا وصنف

(١) هدي الساري ص ٤.
(٢) رسالته في وصف تأليفه لكتاب السنن ص ٧ طبع مصر.

أحاديثه على المسانيد كالإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وعثمان بن أبي شيبة وغيرهم من النبلاء ، ومنهم من صنف على الأبواب وعلى المسانيد معاً كابن أبي شيبة[١] ومن أهم المسانيد وأشهرها وأشملها مسند الإمام أحمد بن حنبل ، فإنه جمع فيه أربعين ألفاً من الأحاديث النبوية. يقول الحافظ ابن كثير: إنه لا يوازيه كتاب مسند في كثرته وحسن سياقه[٢] وإنه وإن لم يخل من الأحاديث الضعاف ولكنه أصح صحيحاً من غيره من المسانيد.

وبتأليف المسانيد تم عمل الجمع وانتهى القرن الثاني وطلع القرن الثالث[٣].

وهكذا كان الحديث موضع عناية هذه الأمة بعد القرآن ، وانصرفت إلى جمعه وتدوينه ، وضبطه وتنقيحه همم المخلصين المجاهدين ، وما زالوا يعنون به ، ويتفانون في سبيله ، حتى خرجت من هذه المجموعة الكبيرة التي كانت منبثة في الآفاق ؛ مجاميع صحيحة منقَّحة للحديث النبوي ، كان في مقدمتها هذه الستة التي توافق علماء هذا الشأن وأصحاب الصناعة ، والمشتغلون

(١) هدى الساري ص ٦٠٥.

(٢) اختصار علوم الحديث ص ٧.

(٣) لخصته من كتاب «ابن ماجه وعلم الحديث» لأستاذي الجليل العلامة المحدث الأصولي الشيخ عبد الرشيد النعماني حفظه الله تعالى ، (بلال الندوي).

بالعلوم الدينية ، والناقدون لها ، على صحتها وتقديمها على غيرها ، وهي الجامع الصحيح للبخاري ، والجامع الصحيح لمسلم ، والجامع للترمذي ، والسنن لأبي داود السجستاني ، والسنن للنسائي ، والسنن لابن ماجه ، واصطلح العلماء على تسميتها بالصحاح الستة .

ثم يمتاز بينها ويتفوق في الصحة والقبول ، والاستفاضة كتابان : أولهما «الجامع الصحيح» لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (م ٢٥٦ هـ) والثاني : «الجامع الصحيح» لمسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ). واصطلح الناس على تسميتهما «بالصحيحين» وكل ما يرويانه من حديث بـ «متفق عليه» وقد قال إمام الحديث في العصور المتأخرة ، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[١] (م ١١٧٦ هـ) في كتابه «حجة الله البالغة» :

أما الصحيحان فقد اتفق المحدِّثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع ، وإنهما متواتران إلى مصنفيهما ، وأن كل من يهون أمرهما فهو مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين[٢] .

وقد ظلت هذه الكتب الستة ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر

(١) هو المعروف بالإمام ولي الله الدهلوي صاحب «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» .

(٢) حجة الله البالغة ج١ ص١٠٦ .

الإصلاح والتجديد والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية ، تلقى منها المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح ، والفكر الإسلامي النقي ، واحتجوا بأحاديثها ، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغني عن هذه المصادر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل ، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية ، والأسوة الكاملة ، وكل من تلجئه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة.



نظرات في الجامع الصحيح
للإمام البخاري ـ رحمه الله ـ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد! فإنه يسعد كاتب هذه السطور أن يقدم لمقدمة «لامع الدراري على جامع البخاري» لبقية السلف وحجة الخلف الشيخ العلامة محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي السهارنفوري[١] ، بعدما أكرمه الله بتقديم لمقدمة «أوجز المسالك[٢] إلى شرح موطَّأ الإمام

(١) توفي في غرة شوال ١٤٠٢ هـ ، وقد ترجم له سماحة العلامة الشيخ الندوي في كتابه القيم «شخصيات وكتب» وأفرد ترجمته في كتاب له في أردو .

(٢) وهو من أبدع مصنفاته ومن أحسن شروح «الموطَّأ» ، حتى قال بعض المحدِّثين المالكيين : إنه لم يصنف قبله مثل ذلك في شرح «الموطَّأ» .

مالك[١]» وكلتا المقدمتين العظيمتين كانتا في غنى عن تقديم وتعريف ، ولكن مؤلفها العظيم أراد أن يكرم كاتب هذه السطور بهذا التقديم ، ويشركه في هذه الكرامة ، وأراد أن يضم إليها سعادة جديدة ، فكانت له الحسنى وزيادة.

وإن كاتب هذه السطور يقف حائراً مبهوراً أمام هذه الكرامة التي هي فوق همته ، وأكثر من قدره وقيمته ، فكأنه كسي ثوباً سابغاً فضفاضاً قد فصِّل على من هو أطول منه قامةً؛ وأكثر منه جسامةً ، وقد كان في علماء هذا الشأن والمشتغلين بصناعة علم الحديث من كان أجدر بهذه الكرامة وأقدر على هذا التقديم من كاتب هذه السطور ، ولكنه فضل من المؤلف وشرف للكاتب.

لقد أصبحت هذه المقدمة كتاباً مستقلاً مفيداً يستحق أن ينشر

---

(١) هو سيدنا الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي الحميدي (٩٣ ـ ١٧٩ هـ) إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة ذوي المذاهب المتبوعة ، مولده ووفاته بالمدينة ، حدث عن نافع والزهري وابن دينار وغيرهم ، يصدق عليه قول النبي ﷺ «تضرب للإبل أكبادها إلى عالم المدينة لا ترى أعلم منه» صنفت في عصره موطآت كثيرة حتى قيل لمالك ـ رحمه الله ـ: ما الفائدة من تصنيفك؟ قال: «ما كان لله بقي» كما في التدريب للسيوطي وهكذا كان. أقبل عليه الناس إقبالاً كلياً حتى قال خليفة عصره: أريد أن أعلقه بأستار الكعبة وأجعله دستوراً ، فمنعه الإمام ، (تذكرة الحفاظ: ١/ ٢٠٧) (تهذيب التهذيب: ١٠/ ٥) (شذرات الذهب: ١/ ٢٨٩).

بمفرده ، فقد أصبحت مقدمة ضافية في علوم الحديث وأنواع المؤلفات فيها ومراتبها وطبقاتها وخصائصها ودائرة معارف فيما يتصل بالإمام البخاري[1] ، وسيرته وأخباره ودقائق حياته وجلائلها؛ وخفيات أموره وظواهرها ، وما خصه الله به من مواهب وخصائص ، ومنهجه في التأليف ، وما التزمه من التزامات وشروط في وضع هذا الكتاب ، وبما تلقته هذه الأمة من اعتناء وقبول؛ وإقبال وتقديم ، وتوثيق وتصحيح ، وثقة واعتماد ، وتناقل وتوارث ، وشرح وإبراز لكل ناحية من نواحي هذا الكتاب ، تخطر على قلب بشر أو ينتقل إليها الذهن الإنساني ، وهي غاية ما يصل إليه الذكاء ويبلغ إليه الخيال في التحقيق والتدقيق ، والتجزية والتحليل؛ والشرح والتفصيل ، وغاية ما عرف من الاعتناء بكتاب لمؤلف من مؤلفي العالم ، ولإنسان في تاريخ التأليف والتصنيف

---

(١) هو الإمام عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري ، حبر الأمة وأمير المؤمنين في الحديث (١٩٤ ـ ٢٥٦) ولد في بخارى ونشأ يتيماً ، قام برحلة طويلة في طلب الحديث فزار خراسان والعراق ومصر والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ ، منهم الإمام أحمد بن حنبل ، كان من أوعية العلم ، يتوقد ذكاءً لم يخلف بعده مثله في سَيَلان ذهنه وسرعة حفظه ، له مصنَّفات شهيرة أشهرها في الآفاق صحيحه ، وهو يقول: صنفت كتاب الصحيح بست عشرة سنة خرجته من ستمئة ألف حديث وجعلته حجة ، توفي ليلة الفطر في شوال ، (تذكرة الحفاظ: ج/ ٢ ، ص/ ١٢٠) (تهذيب التهذيب ج/ ٩ ، ص/ ٤٧) (وفيات: ج/ ١ ، ص/ ٤٥٥).

وفي تاريخ العلم والحضارة ، عبر القرون والأجيال ، وعبر الحدود والثغور ، فلو زعم زاعم أو ادعى مدع أنه لم يُعْتَنَ بكتاب بشري في أي ملة وديانة ، وفي أي لغة وأدب ، وفي أي موضوع ومقصد ، وفي أي عصر من العصور ، مثل ما اعتني بالجامع الصحيح للإمام البخاري(١) ، لما كان مجازفة من القول ولا مبالغة في الدعوى ، ولا إسرافاً في الحكم ، ولكان لهذا القول وجاهة علمية ودلائل تاريخية ، قائمة على استعراض طويل دقيق ، محايد أمين للمكتبة العلمية العالمية ، ونتاج العقول والأقلام ، ومحصول القرائح والهمم ، من فجر التاريخ إلى يوم الناس هذا.

ولنظرة عجلى فيما تضمَّنت هذه المقدمة من معلومات وتفاصيل عن مدى اعتناء الأمة الإسلامية بهذا الكتاب الذي اعتبرته أصح الكتب بعد كتاب الله ، وأوثق مصدر للحديث النبوي ، وكيف تناولته بالبحث والتنقيب ، وكيف عصرت عقولها وصبت آخر قطرة من قطراتها ، واستفرغت جهدها واستنفدت قوتها وطاقاتها ، وأفنت أعمارها وأوقاتها في الكشف عن خباياه وحلِّ غوامضه واستقصاء شروط المؤلف فيه ، ومعرفة رجاله ورواته واستعراض

---

(١) أقبل عليه الناس درساً وتدريساً ، شرحاً وتعليقاً ، استدراكاً وتخريجاً ، استنباطاً واستخراجاً ، جزئياً وكلياً ، لا يوجد له مثيل في هذا الأمر في أي كتاب بشري في أي أمة من الأمم ، وهذه حقيقة اعترف بها الأعداء والأصدقاء.

ما قيل عنه وما اعترض عليه وذب به عنه والمحاكمة في كل ذلك ، ومقارنته بمجاميع السنة الأخرى ، وتفضيله على قرينه «الجامع الصحيح» للإمام مسلم بن الحجاج القشيري[1] ، وفيما وقع بينهما من اختلاف في بعض الأصول والشروط ، ثم كيف خُدِم الكتاب من نواح مختلفة ، لا يقع على أكثر منها الذهن البشري عادة ولا يتجاوزها غالباً ، تكفي لتصديق ما قلناه وتفصيل ما أجملناه من العناية الفائقة الخارقة للعادة بهذا الكتاب.

ويكفي القارىء أن يطلع على جهود العلماء وكبار الأذكياء في التطبيق بين تراجم الأبواب والأحاديث ، وقد ذكر مؤلِّف هذه المقدمة سبعين أصلاً لفهم أسرار المؤلف وأغراضه في وضع هذه التراجم والوصول إلى مراده وغايته والتطبيق بينهما ، وقد استقصى هذه الأصول من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع قديماً وحديثاً ،

---

(١) هو الإمام الحافظ الحجة سيد المحدثين أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري صاحب الصحيح (٢٠٤ ـ ٢٦١ هـ) سمع عن أحمد بن حنبل وطبقته وروى عنه الترمذي وابن خزيمة وابن أبي حاتم وخلق سواهم ، له مصنفات أشهرها في العالم صحيحه وهو من أحسن المصنفات في الحديث جودة وترتيباً ورجحه المغاربة على البخاري ، قال محمد بن الماسرجسي : سمعت مسلماً يقول: «صنفت هذا الصحيح من ثلاثمئة ألف حديث مسموعة» ويقول: «ما وضعت شيئاً في كتابي هذا إلا بحجة وما أسقطت شيئاً منها إلا بحجة» (تذكرة الحفاظ: ٢/ ٥٩٠) (شذرات الذهب: ٧/ ٢٢١).

ومن شروح البخاري ، وضم إليها أصولاً جديدة ، ألهمه الله إياها بطول ممارسته لهذا الفن ومباشرته لتدريس هذا الكتاب ، وبفرط ذكائه وصدق طلبه ومثابرته على التأمل والمطالعة ، وإجالة الفكر وإعمال القريحة ، ففتح الله عليه بالشيء الكثير والعلم الغزير ، وبما لم يسبق إليه ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] وقوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠].

ويكفيه كذلك أن يجيل نظره في وجود المناسبة والارتباط اللطيف الدقيق بين أول كل كتاب وخاتمته من الكتب التي يشتمل عليها هذا الكتاب العظيم «الجامع الصحيح» للبخاري ولطائف ذوقية في التزامات المؤلف مثل التذكير بالموت والآخرة في آخر كل كتاب ، فقد نقل المؤلف في هذه المقدمة كل ما وصل إليه اجتهاد أكبر شارح للجامع الصحيح ، وهو العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ[1] في كتابه العظيم الخالد «فتح الباري»

---

(١) هو الإمام الحافظ أحمد بن علي ، أبو الفضل ، شهاب الدين ابن حجر الكناني العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ) من كبار أئمة الحديث والتاريخ ، أصله من عسقلان (بفلسطين) ومولده ووفاته بالقاهرة ، أولع بالأدب والشعر ، ثم أقبل على الحديث ورحل إلى اليمن والحجاز والقاهرة وغيرها للسماع عن الشيوخ ، أخذ عن العراقي ، وابن الملقن وغيرهما ، وعلت له شهرة ، قصده الناس للأخذ عنه ، وأصبح حافظ الإسلام في =

وما أضاف إليه مؤلف هذه المقدمة من نكت بديعة وإشارات لطيفة في ربط آخر الكتاب بأوله ، حتى يصبح الكتاب وحدة متناسقة متكاملة ، وعقداً منتظماً ، كل لؤلؤة تلتئم مع أختها وتنسجم مع شقيقتها؛ وتخدم غاية واحدة ، هي غاية الجمال والكمال ، وغاص فيها المؤلف إلى أعماق بعيدة ، لا يصل إليها كل مشتغل بهذا العلم الشريف ، ولا يلزم أن يوافقه في ذلك كل باحث ، ويتذوقه كل قارىء ، فقد يغلب ذكاؤه المفرط وهيامه بهذا الكتاب ومعانيه ، وإيمانه الزائد بدقة فهم مؤلفه وبُعْد غوره ومراميه ، فيأتي بما لا يسهل فهمه وإساغته ، ولكن لا ينقص من قيمته ولا ينكر جهد المؤلف وحرصه على استخراج الدرر واقتناص النجوم ، وإعجابه الشديد بعبقرية الإمام البخاري ولطف حسه ورقة شعوره وامتحانه للعقول .

= عصره ، يقول السخاوي : انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر ، كان فصيح اللسان ، صبيح الوجه ، ولي قضاء مصر مرات ، ثم اعتزل ، له مصنفات كثيرة جليلة أشهرها : «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» ، «ولسان الميزان» ، و«تهذيب التهذيب» ، و«الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» وغيرها من المؤلفات النافعة ، ولتلميذه السخاوي كتاب في ترجمته سماه «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» (شذرات الذهب : ٧/ ٢٧٠) (الأعلام : ١/ ١٧٣) .

ولا نعرف كتاباً من كتب البشر ـ في المكتبة الدينية العالمية ـ تناوله العلماء والمؤلفون بالشرح والتحشية والتعليق مثل ما تناولوا كتاب هذا الإمام الجليل الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله ، وقد كان الشرح والتعليق هو المجال العلمي الذي تظهر فيه عناية العلماء والمؤلفين في العصور القديمة ، ومقياس اهتمامهم بأثر علمي ، فكان أكثر الكتب شروحاً وتعليقات هو أعظم المؤلفات تقديراً ، وأعلاها منزلة وأكثرها شهرة ، وكان أقل الكتب شروحاً وتعليقاً ، أخملها ذكراً وأقعدها شهرة وصيتاً ، فيبقى مطموراً مغموراً ، لا يسترعي انتباهاً ، ولا يثير اهتماماً ، فإذا أخذ هذا المقياس ـ وهو المقياس الوحيد لنجاح كتاب في عهدنا العلمي الماضي ، والدليل القاطع على احتلاله للصدارة في المجلس العلمي ـ حكمنا بأن «الجامع الصحيح» للبخاري قد فاز بالقدح المعلى في هذا الميدان ، واحتل الصدارة في مكتبتنا الإسلامية التي انبثقت عن القرآن ودعوة الإسلام ، وامتدت على مشارق الأرض ومغاربها ، في المساحة الأرضية المكانية ، وعلى القرن الأول إلى القرن الثالث عشر ـ على الأقل ـ في مساحتها التاريخية الزمانية ، فقد بلغ عدد شروحه والتعليقات عليه إلى مئة وواحد وثلاثين كتاباً(١٣١) على حسب استقراء مؤلف هذه المقدمة[١] وعلمه واطلاعه ، وقد يكون العدد أكثر من هذا ، فقد كان هذا الاستقصاء مؤسساً على

(١) مقدمة «لامع الدراري» للعلامة محمد زكريا الكاندهلوي .

كشف الظنون للجلبي[١] ، «ومفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده[٢] ، و«إتحاف النبلاء» ، و«الديباج المذهب» ، و«نيل الابتهاج» ، ومقدمات الشروح المشهورة التي كانت في متناول يده ، و«الثقافة الإسلامية في الهند» ، وبعض دراساته وتتبعاته الفردية ، ولا شك أن العالم الإسلامي أوسع مما تخيَّله الجغرافيون، والتاريخ الإسلامي

---

(١) هو مصطفى بن عبد الله الكاتب الجلبي المعروف بالحاج خليفة (١٠١٧ ـ ١٠٧٦ هـ) مؤرخ بحاثة ، تركي الأصل ، مستعرب ، مولده ووفاته في القسطنطينية ، تولى أعمالاً كتابية في الجيش العثماني ، وذهب مع أبيه وكان من رجال الجند إلى بغداد فمات أبوه «بالموصل» فرحل إلى ديار بكر ثم عاد إلى «الآستانة» ، رحل إلى الشام ، ثم حج وزار خزائن الكتب الكبرى ، وعاد إلى «الآستانة» ، وشهد حرب كريت (١٠٥٥ هـ) وانقطع في السنوات الأخيرة إلى التدريس ، له مصنفات أشهرها : «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وقد صرف عشرين سنة من عمره لجمع هذا الكتاب ، (دائرة المعارف الإسلامية في (أردو) طبع بنجاب ، ج/ ٧ ، ص/ ٧٧١) (الأعلام : ج/ ٨ ، ص/ ١٣٨) .

(٢) هو العلامة أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زاده (٩٠١ ـ ٩٦٨هـ) قرأ على علاء الدين اليتيم وأخذ عن عمه قوام الدين قاسم بن الجليل ، قرأ قدراً من «صحيح البخاري» على محمد التونسي ، وحصلت له الإجازة ، درس بعدة مدارس ، ثم صار قاضياً ببروسا ثم انتقل إلى إحدى المدارس الثمان ودرس ثم صار قاضياً ، ألف عدة مؤلفات نافعة منها ، «مفتاح السعادة» عدة مجلدات ، و«الشقائق النعمانية» وغير ذلك (حاشية «الفوائد البهية» : ص/ ٣٣) (معجم المطبوعات العربية : ٧/ ١٢٢١) .

العلمي أغنى مما دوَّنه المؤرِّخون ، وفي الزوايا خبايا لم تقع عليها عين ولم تطلع عليها الشمس.

وإن كتاب «فتح الباري» للعلامة ابن حجر العسقلاني[١] الذي يقع في ثلاثة عشر مجلَّداً ضخماً ومقدمة مبسوطة تكاد تكون مكتبة مستقلة في علوم الحديث ، كتاب لا يوجد له نظير في مكتبات الديانات والملل ، وإن لهذه الأمة الإسلامية أن تفتخر بهذا الأثر العلمي الخالد ، وتقدِّمه إلى علماء الديانات والفلسفات وروَّاد الحضارات والثقافات ، كبرهان ساطع على جهاد هذه الأمة العلمي ونبوغها الفكري وولوعها بآثار نبيها والغوص فيها إلى أعماق ليست بعدها أعماق ، والوصول فيها إلى آفاق ليست وراءها آفاق ، هذا ، مع عدم الحط من قيمة الشروح الأخرى ـ وفي مقدمتها «عمدة القاري» للعلامة بدر الدين العيني[٢] التي هي مكتبة حافلة في النحو

(١) مضت ترجمته.

(٢) هو الإمام العلامة الحدث الفقيه المؤرخ بدر الدين محمود بن شهاب الدين أحمد العينتابي المصري الحنفي المشهور بالعيني (٧٦٢ ـ ٨٥٥ هـ) تفقه على والده ، ثم رحل إلى حلب وأخذ عن يوسف بن موسى الملطي الحنفي ، ثم قدم القدس الشريف فأخذ عن العلاء السيرامي وصحبه حتى سافر معه إلى القاهرة ولازمه حتى مات فأقام بمصر مكباً على الاشتغال والإشغال ، وولي حسبة القاهرة ثم ولي عدة تداريس ووظائف دينية ، واشتهر اسمه وبَعُد صيته ، أفتى ودرَّس وصنَّف إلى أن ولي قضاء قضاة الحنفية بالديار المصرية ، كان فصيحاً باللغتين العربية والتركية وكان أحد=

والعربية ، وعلوم البلاغة ، والأحكام المستخرجة ، والفوائد المستنبطة من الأحاديث ـ ومع الاعتراف بإخلاص مؤلِّفيها ونصحهم لله ولرسوله وللمؤمنين ، وإفراغ وسعهم في خدمة الحديث ونشره ، والتعمُّق فيه إلى غاية لا يتصور فوقها ، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء .

ثم يلي هذا المقياس ، شدة العكوف على دراسة الكتاب والتهافت على روايته ونقله والتنافس في حمله ونشره وضمه إلى الصدور والعض عليه بالنواجذ ، وتوارث الأجيال في تلقيه جيلاً بعد جيل ، وكابراً عن كابر ، وتلميذاً عن أستاذ ، وطبقة عن طبقة ، حتى لا تعرف فترة من الزمان ، نسج فيها عليه العنكبوت وساد عليه الظلام ، وانقطعت روايته ، وتوقفت دراسته وعبث به العابثون ، وتصرف فيه الخائنون المحرفون ، وقد تفرد الجامع الصحيح بهذه الميِّزة بعد كتاب الله ، فقد أخذ هذا الكتاب عن مؤلفه تسعون ألفاً من الرواة والحفَّاظ ، وتسلسل نقله وروايته ، حتى انتهى هذا الكتاب إلى مؤلفه ، وبلغ حد التواتر في شهرته وصحة نقله ونسبته إلى المؤلف ، لا ينكر ذلك ولا يتشكك فيه إلا من تشكك في المتواترات والحقائق العلمية التي تثبت بالضرورة ،

= أوعية العلم ، أخذ عنه ما لا يحصى . له مصنفات جليلة أشهرها ، «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» في عشرين مجلداً ، (شذرات الذهب : ٧/ ٢٨٦) (الجواهر المضيئة : ٢/ ١٦٥) (الفوائد البهية : ص/ ٨٧) (الضوء اللامع : ١٠/ ١٣١) .

ولا يزال هذا الكتاب موضع الاهتمام والعناية وموضوع التأمل والدراسة في الحلقات العلمية في العالم الإسلامي .

وقد كان نصيب الهند ـ للأسباب التي بسطنا بعضها في مقدمتنا لمقدمة «أوجز المسالك ـ أوفر في التمسك بهذا الكتاب والعكوف عليه درساً وتدريساً من كل بلد إسلامي في العصر الأخير ، فإنه لا يزال في قمة الكتب الحديثية التي تدرس في المدارس الدينية ، يقرأ من أوله إلى آخره في آخر سني الدراسة ، وقد أصبح شعاراً لنبوغ الأستاذ ورسوخه في علوم الحديث والأثر ، واقتداره على صناعة التدريس والتفهيم ، يتجلى فيه امتياز معلم عن معلم وتفوق أستاذ على أستاذ ، وأصبح شرطاً لكمال الطالب واجتهاده وفوزه ونجاحه ، فلا يعتبر عالماً إلا إذا قرأ هذا الكتاب بدقة وإمعان وجهد وإتقان ، ولا تزال ختمات البخاري لتفريج الكرب وإزالة ما نزل بالمسلمين عادة منتشرة وتقليداً متبعاً في أنحاء العالم الإسلامي .

وهذا كله دليل اعتناء الأمة بهذا الكتاب ، وما حازه من قبول عند الله وعند الناس .

ثم خص هذا الكتاب بالإطباق على أنه قد بلغ أقصى درجات الصحة والوثاقة والتحري في نقل الصحيح الثابت ، والاحتياط الذي يبلغ إليه اجتهاد المجتهدين ، وأمانة النقلة والرواة ، وأن المؤلف قد أفرغ فيه جهده ونجح فيه نجاحاً لم يكتب لمحدث آخر ، وراعى فيه أدق الشروط التي عرفت في هذا الفن؛ والتزم فيه

التزامات لم تعرف عن أي مؤلف في هذا الموضوع ، ثم ساعدته في ذلك الملكة الراسخة التي لا يُرزقها إلا واضعو الفنون والصيارفة الحذَّاق وأهل السليقة الذين لا يعرفهم التاريخ إلا في فترات طويلة وعلى مر القرون والأعصار ، وهم في كل لغة وأدب ، وكل موضوع ومقصد؛ ويجعلهم الله ميزاناً في هذه الفنون وحجة في هذه المقاصد، فيرزقهم من ثقوب النظر ، وصحة الحدس ، وسرعة الخاطر ، ودقة الشعور ، وسلامة الفكر ، والذوق السليم الذي لا يخطىء ما لا يرزقه أقرانهم ونظراؤهم ـ على جلالة قدرهم وغزارة علمهم ـ فيأتون في هذه الفنون والمقاصد من الحكم الصحيح السريع والوصول إلى الحقيقة والاهتداء إلى الصميم بما يشبه الإلهام ، وبما يخيل إلى كثير من الناس بأنه فوق الطاقة البشرية ، وما هو بإلهام دائماً ، وما هو فوق الطاقة البشرية ، لكنه الملكة الراسخة والموهبة الربانية والتوفيق الإلهي وطول الممارسة وشدة الإخلاص.

ونظائر ذلك كثيرة في الأدب والشعر ، واللغة والنحو ، وعلم العروض والطب ، وأولئك الأئمة لا يخضعون للقواعد التي وضعها من كان في طبقاتهم أو دونهم ، ودونتها كتب هذا الفن ، وجاء فيها الغث والسمين واختلط فيها الحابل بالنابل ، فقد يتحررون عن هذه القواعد وعن هذه الآراء والمقاييس؛ ويحكمون بسليقتهم وبصيرتهم وذوقهم وتجربتهم.

ومن الظلم والجهل بالحقيقة ، والتسرع في الحكم ، والتقليد الأعمى ، أن يخضعوا لهذه القواعد المرسومة المحدودة التي جاءت

في كتب من تأخر زمانه عن زمانهم وانحط مكانه عن مكانهم فيؤخذ «تهذيب الكمال»[١] للمزي[٢] مثلاً أو مختصراته للحافظ ابن

---

(١) وهذا الكتاب في الأصل تهذيب واستدراك على «الكمال» للحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي (م ٦٠٠ هـ) يقول المزي: «إن الحافظ عبد الغني لم يصرف عنايته إليه ولا استقصى الأسماء، ولا تتبع التراجم ثم إن ولده رام تهذيبه فزاد فيه أسماء جماعة كثيرة استقصاءً من الأطراف لابن عساكر لكنه ذكر مختصراً مع أوهام شنيعة فأردت تهذيبه واستدراك النقص فأضفت فيه ألف وسبعمئة اسم وجعلت لكل تأليف علامة» وأضاف فيه جماعة وهذبه جماعة منهم مغلطاي الحنفي والذهبي وغيرهما حتى جاء ابن حجر فصنف باسم «تهذيب تهذيب الكمال» في ستة مجلدات قال فيه: «إن كتاب الكمال الذي ألفه الحافظ عبد الغني وهذبه الحافظ المزي من أجَلِّ المصنفات في معرفة جملة الآثار، ولا سيما التهذيب بَيْدَ أنه أطال فقصرت الهمم عن تحصيله لطوله فاختصره بعض الناس» هذا كما في «كشف الظنون» وللحافظ ابن حجر مختصر تهذيب التهذيب أيضاً سماه «تقريب التهذيب».

(٢) هو الإمام المحدث العلامة يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف أبو الحجاج جمال الدين ابن الزكي أبو محمد القضاعي الكلبي المزي الشافعي (٦٥٤ ـ ٧٤٢ هـ) محدِّث الديار الشامية في عصره، ولد بحلب ونشأبالمزة (من ضواحي دمشق) مَهَر في اللغة ثم في الحديث ومعرفة رجاله، وولي دار الحديث الأشرفية ثلاثاً وعشرين سنة، له التصانيف النافعة أشهرها: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» اثنا عشر مجلداً، يقول الذهبي عنه: «إليه المنتهى في معرفة الرجال وطبقاتهم فما رأيت مثله» (تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٩٨) (شذرات الذهب: ٦/ ١٣٦) (الدرر =

حجر[١]، أو «ميزان الاعتدال» للذهبي[٢] ـ على فضل هذه الكتب وفضل مؤلفيها على المشتغلين بهذا العلم ـ فيحكم على الجامع الصحيح للبخاري[٣] أو الجامع الصحيح لمسلم[٤] أو الموطَّأ للإمام مالك[٥]؛ فيعاد الأمر جذعاً ويستأنف النظر في هذه الكتب التي تلقتها الأمة بالقبول، وبلغ أصحابها إلى أقصى درجات في التحقيق والدقة والتحرِّي، وتشرح تشريح الأجسام، وتسلط عليها المقاييس المحدودة التي تقبل النقاش ويتسع فيها مجال الكلام، فهذا النوع من القسوة العلمية والجفاف الفكري والعمل التقليدي سيحدث فوضى تتزلزل بها أركان الدين؛ وتتضعضع بها العقيدة

= الكامنة: ٤/ ٤٥٧).

(١) مضت ترجمته.

(٢) هو الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حافظ، مؤرخ، علامة، محقق، تركماني الأصل، مولده ووفاته في دمشق، رحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان، أخذ عن ابن دقيق العيد والدمياطي وغيرهما، كف بصره سنة ٧٤١ هـ، يقول السبكي: اشتمل عصرنا على أربعة من الحفاظ لا خامس لهم منهم الذهبي وقال عنه: «كنزٌ هو الملجأ» له مصنفات كثيرة وغزيرة أشهرها: «تذكرة الحفاظ» و«ميزان الاعتدال» و«سير أعلام النبلاء» (شذرات الذهب: ٦/ ١٥٣) (ذيل تذكرة الحفاظ: ٣٤ و٣٤٧) (الدرر الكامنة: ٣/ ٣٣٦).

(٣) مضت ترجمته.

(٤) مضت ترجمته.

(٥) مضت ترجمته.

واليقين ، ويتورط المسلمون في اضطراب قد أغناهم الله عنه وكفاهم شره.

ولذلك كان حذاق المحدثين وعلماء أسماء الرجال يعتمدون في ذلك على «البخاري» و«مسلم» أكثر مما كانوا يعتمدون على كتب أسماء الرجال التي دونت في العصور المتأخرة؛ ويعجبني في ذلك ما نقله صاحب المقدمة عن الشيخ أبي الحسن المقدسي كان يقول في الرجل الذي يخرج عنه في الصحيح «هذا جاز القنطرة» يعني بذلك أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه؛ وقال الشيخ أبو الفتح القشيري: هكذا نعتقد وبه نقول ولا نخرج عنه إلا لحجة ظاهرة وبيان شاف يزيد في غلبة الظن على المعنى الذي قدَّمناه من اتفاق الناس بعد الشيخين على تسمية كتابيهما «بالصحيحين» ومن لوازم ذلك تعديل رواتهما ويؤيده ما قال الحافظ ابن حجر (كما نقل عنه صاحب المقدمة) «وقبل الخوض فيه ينبغي لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأي راوٍ كان مقتضياً لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته ، ولا سيما ما انضاف إلى ذلك من إطباق جمهور الأمة على تسمية الكتابين «بالصحيحين» وهذا معنى لم يحصل لغير من خرج عنه في الصحيح فهو بمثابة إطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما».

وكذلك ليس من الصواب ولا من الفقه ولا من مصلحة الإسلام والمسلمين أن تثار قضية أصحية هذين الكتابين الجليلين من جديد ، وتبحث ، كأن الأمر أنف والموضوع بكر لم يطرق من

قبل ، ولم يقتل بحثاً وتفكيراً ، فهو يحدث كذلك فوضى فكرية ويضيع على الأمة كثيراً من جهودها وطاقاتها وأوقاتها ، وهو جهاد في غير جهاد أغنى الله خلف هذه الأمة عن القيام بأعبائه بما تولاه سلف هذه الأمة ، وفتح باب خطر على مصراعيه تدخل منه آفات كثيرة وتشويشات عظيمة ، وليس سرّ أصحية هذين الكتابين وفضلهما على سائر الكتب في علو طبقة رجالهما وعدالتهم وفي الشروط الدقيقة التي التزمها المؤلفان فحسب ، بل في اشتهار هذه الأحاديث التي حواها هذان المجموعان ، وشدة اعتناء علماء هذا الشأن بها ، وكثرة تلقي الأمة لها ، وقد أحسن شيخ الإسلام الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي(١) كل الإحسان إذ قال مبيناً لهذه النكتة في كتابه الفريد «حجة الله البالغة» : «أما الصحيحان فقد اتفق

(١) هو الإمام حكيم الإسلام قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، مسند الهند وأعلم أسرار الشريعة (١١١٤ـ ١١٧٦ هـ) قرأ سائر العلوم على والده ، وكان يختلف إلى المحدث الشيخ محمد أفضل السيالكوتي واستفاد منه في الحديث ، سافر إلى الحرمين الشريفين ، وأقام بهما عامين وصحب علماءها وأخذ الحديث عن الشيخ أبي طاهر الكردي ورجع إلى الهند ونشر الحديث فيها ، وقد ألهمه الله تعالى من العلوم والأسرار وجمع فيه من العلوم يندر نظيرها في تاريخ الأمم والديانات ، يقول عنه شيخه الكردي : «يسند عني اللفظ وكنت أصحح منه المعنى» ومن أشهر مصنفاته : «حجة الله البالغة» في علوم أسرار الشريعة (نزهة الخواطر : ج ٦ ، ص ٣٩٧) (رجال الفكر والدعوة : ٤) للعلامة أبي الحسن الندوي .

المحدثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع الصحيح بالقطع ، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع ومتبع غير سبيل المؤمنين ، وإن شئت الحق الصراح فقسهما بكتاب ابن أبي شيبة وكتاب الطحاوي ومسند الخوارزمي وغيرهما تجد بينها وبينهما بعد المشرقين ، وقد استدرك الحاكم عليهما أحاديث هي على شرطهما ولم يذكرها وقد تتبعت ما استدركه فقد أصاب من وجه ولم يصب من وجه ، وذلك لأنه وجد أحاديث مروية عن رجال الشيخين بشرطهما في الصحة والاتصال فاتجه استدراكه عليهما من هذا الوجه ، ولكن الشيخين لا يذكران إلا حديثاً قد تناظر فيه مشايخهما وأجمعوا على القول به والتصحيح له كما أشار مسلم حيث قال: «لم أذكر هاهنا إلا ما أجمعوا عليه» وجل ما تفرد به المستدرك كالموكى عليه ، المخفي مكانه في زمن مشايخهما ، وإن اشتهر أمره من بعد»[1].

وليس اتفاق الأمة وعلمائها على أصحِّيَّة البخاري وفضله على سائر الكتب مجرد اتفاق ومصادفة ، ولا عن تواطؤ ومؤامرة ، وقد أعاذ الله هذه الأمة التي اختارها لحمل دينه وتبليغ رسالته من أن تكون فريسة غفلة وغباوة وأن تجتمع على الضلال ، بل كان ذلك إلهاماً من الله ومكافأة على ما قام به مؤلف هذا الكتاب من جهاد في سبيل حفظه الأحاديث النبوية ، ثم تحقيقها وتنقيحها ومعرفة

---

(١) حجة الله البالغة: ص ١٣٤ .

رجالها ورواتها وكشف أستار الكذابين والوضاعين وتمييز الضعفاء والمجروحين ثم في نقلها ونشرها في الآفاق وجمعها في مجموعة مهذبة منقحة ، بحسب الطاقة البشرية والعلم الإنساني ، وقد هجر في سبيل ذلك راحته وحظوظ بدنه ومطالب نفسه ، ونسي لذته وغادر وطنه واكتفى من الدنيا ببلغة عيش وسداد رمق ، ولقي في سبيله أذى كثيراً وتحمل في سبيله نكراناً وجفاءً ، ومحنة وبلاءً ، فقد وهب للحديث حياته وما أكرمه الله به من قوى وطاقات وحافظة لاقطة واعية وذهن وقاد وعقل نقاد ونفس كبيرة وهمة عالية؛ فكافأه الله على كل ذلك بأن قيض له أفواجاً من العلماء والأذكياء يخدمون كتابه بصنفوف من الخدمة وأنواع من الجهد لم تخطر ببال أي جماعة قبلهم ولم تتيسر لكتاب بعد كتاب الله ، وأشعل في قلوبهم حب هذا الكتاب والسهر على خدمته حتى لم يشعروا بلذة إلا في شرحه ونشره ولم يجدوا راحة إلا في تحقيقه وتنقيحه ، حتى كونوا هذه المكتبة الواسعة الزاخرة التي لم توجد لكتاب؛ وفي هذه المقدمة العظيمة أضواء على هذه المكتبة وتعريف بأهم كتبها ومحتوياتها ولم يكن ذلك كله إلا مظهراً من مظاهر سنة الله في خلقه وهي «أن الجزاء من جنس العمل» فهي سنة قديمة في الأمم والجماعات البشرية وأفراد الناس ، فلما حفظ البخاري سنة رسول الله ﷺ وجاهد في سبيلها حق الجهاد ووقف كل حياته وكل ما كان يملكه ويمتاز به له ، كفل الله بحفظ كتابه وانتشاره وبقائه وازدهاره واعتناء الأمة به اعتناءً لا مزيد عليه ، وفي هذه المقدمة قصة هذا

الاعتناء وعرض لجوانبه الكثيرة ومناحيها المختلفة.

ومن سلسلة هذا الاعتناء التاريخي الطويل الذي حكى المؤلف قصته في تفصيل وجود هذا الكتاب العظيم الذي أسماه جامعه وناشره «لامع الدراري على جامع البخاري» وهو مجموع أَمالٍ وتحقيقات للإمام الرباني شيخ المحدثين في عصره الشيخ رشيد أحمد الكَنكَوهي(١) في أثناء تدريس الجامع الصحيح للإمام البخاري، قيدها تلميذه النجيب الوفي الشيخ محمد يحيى بن

(١) هو الشيخ المحدث رشيد أحمد بن هداية أحمد الأنصاري الحنفي الرامفوري ثم الكَنكَوهي (١٢٤٤ ـ ١٣٢٣ هـ) ولد في «كَنكَوه» ونشأ بين خؤولته، قرأ المختصرات في بلده ثم سافر إلى دهلي وقرأ على الشيخ عبد الغني حتى فاق أقرانه في العلوم وتصدى للتدريس «بكَنكَوه»، سافر إلى الحجاز ثلاث مرات واستفاد من شيوخه الشيخ عبد الغني والشيخ إمداد الله.

كانت أوقاته موزعة مضبوطة يحافظ عليها، واقتصر في آخر عمره على درس الصحاح الستة فلما كف بصره ترك التدريس وتوسع في الإرشاد والتحقيق، كان آية باهرة في التقوى واتباع السنة والعمل بالعزيمة والحرص على نشر السنة، لا يعرف المحاباة والمداهنة في الدين مع التواضع واللين، وكانت له اليد الطولى في تزكية النفوس، وقد رزقه الله من التلاميذ ما يندر وجود أمثالهم.

له مصنفات مختصرة قليلة، وقد جمع تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى الكاندهلوي ما أفاد في درسه لجامع الترمذي وطبع باسم «الكوكب الدري» (نزهة الخواطر: ج ٨، ص ١٤٨).

محمد إسماعيل الكاندهلوي[١] ، وهو عصارة دراسات الشيخ ولباب تأملاته وعكوفه الطويل على علم الحديث دراسة وتدريساً ، وقد جاء دور الشيخ محمد زكريا بن محمد يحيى ، فنقحها وهذبها وتناولها بالشرح والإيضاح والكشف والإبانة وضم إليها ما فتح الله به عليه من نكت بديعة وإشارات لطيفة وتحقيقات نادرة وتطبيقات فائقة ، لا يعرف قيمتها إلا من باشر تدريس هذا الفن سنين طوالاً ، وعرضت له معضلات ومشكلات أثناء الدرس في مدة طويلة فلم يجد حلها في بطون الأسفار والكتب المتداولة والشروح المشهورة السائرة ، وقد جربت ذلك أثناء تدريسي للجامع الصحيح ، على قلة بضاعتي وقصر باعي وقلة اطلاعي في هذا العلم الذي لا يعرف في علوم الإسلام علم اتسع اتساعه ودق دقته.

وهذه المقدمة اجتمعت فيها فوائد وعلوم قد تفرقت وتناثرت في كتب هذا الموضوع ، فجمعها مؤلفها الذي أصبح له الحديث شعاراً ودثاراً وذوقاً وحالاً في هذه المقدمة ، ويجد فيها المعلم والتلميذ غاية ما أورد به على البخاري واستشكل من هذا الكتاب ، ثم جوابه الشافي ، وشرحاً وافياً لرموز البخاري ومصطلحاته ومقاصده

---

(١) هو والد العلامة محمد زكريا الكاندهلوي ، كان من العلماء الراسخين كانت له ملكة في التربية والتعليم ، ولد في محرم الحرام ١٢٨٩ هـ في بيت عريق في العلم والدين ، أخذ عن العلامة رشيد أحمد الكَنكَوهي والشيخ خليل أحمد السهارنفوري وغيرهما من العلماء درس في «مظاهر العلوم» كتب الحديث إلى أن توفي في ذي القعدة سنة ١٣٣٤ هـ.

وأسراره في التراجم ولطائفه في التأليف ، هذا عدا معلومات قيمة عن الأئمة الأربعة ومذاهبهم وبحوث مفيدة في أصول الحديث وأسماء الرجال ، فجاءت شاملة كاملة وموسوعة واسعة ، يجد فيها الطالب ما يفتق قريحته ويشحذ ذهنه ويرفع همته ويجد فيها المعلم الحاذق والأستاذ الكامل ما ينير سبيله ويسهل مهمته ويوفِّر عليه وقته وجهوده ، فللمؤلف شكر المشتغلين بهذا الفن وثناؤهم واعترافهم بالجميل ، وله من الله الأجر الجزيل والذكر الباقي والدعاء الدائم ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين .



الأبــواب والتراجــم للبخــاري
ميزاتهــا وخصائصــها

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد!

فمما تقرر عند المشتغلين بصناعة الحديث تدريساً وتصنيفاً وشرحاً وتحقيقاً أن الأبواب والتراجم في هذا الكتاب من أدق البحوث والمطالب ومن أعمقها غوراً وأبعدها مدى ، حتى اشتهر بين العلماء أن فقه البخاري في تراجمه ، وأصبح ذلك شعاراً لهذا الكتاب يتميز به عن أقرانه الصحاح على جلالة قدرها وفخامة شأنها ، وأصبح مقياساً لفطنة العلماء ، وتوقد ذكائهم ، وسَيَلان ذهنهم ، وبُعد غورهم واقتدارهم على فهم هذا الكتاب الجليل ، وحل غوامضه ، وفتح أغلاقه ، والتوصل إلى مقاصد المؤلف ، لا يشهد لمؤلف أو مدرس ببراعة في العلم وتفوق في التدريس ، وسعة اطلاع على الشروح والحواشي وأقوال الأئمة والفحول من

المحدثين وطول ممارسة لتدريس هذا الكتاب الشريف وإضناء القوى ، وإفناء العمر في ذلك حتى يجتمع له الشيء الكثير من هذا الباب ، وينفرد بتوجيهات وتعليلات تنحل بها الألغاز ، وتتفتح بها الأقفال ، وتخلو عنها بطون الأسفار .

ولذلك عني بهذا الموضوع العلماء قديماً وحديثاً ، وأجالوا فيه قداحهم ، وأركضوا في هذا السباق جيادهم ، واعتصروا في ذلك عقولهم الراجحة ، وعلومهم الراسخة ، ولا نعرف أديباً أو لغوياً تعمق في فهم بيت من الأبيات ، ومعرفة معنى من المعاني الشعرية ، والوصول إلى غاية من غايات الشعراء مثل تعمق شراح الجامع الصحيح والمشتغلين بتدريسه في فهم مقاصد المؤلف وشرح كلامه .

ولا نعرف ـ على طول اشتغالنا بالتاريخ العلمي ـ مؤلفاً من مؤلفات العلماء أو الحكماء عني به رجال ذلك الفن وعكفوا على حل غوامضه ، وفك مشكلاته حتى شقوا فيه الشعرة ، مثل ما عني علماء الحديث بالجامع الصحيح ، وما ذلك إلا لإخلاص مؤلفه لعلم الحديث الشريف وانقطاعه إليه وجهاده في سبيله وتفانيه في ذلك[١] .

---

(١) ومن أسبابه الظاهرة في ذلك كما يقول الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي ـ رحمه الله ـ إن الإمام البخاري برز بعد المئتين والعلماء قد صنفوا في العلوم الدينية في الفنون المختلفة كالحديث=

كما بينا ذلك في تقديمنا(١) لمقدمة «لامع الدراري» وما ذلك إلا لشدة اعتناء الأمة الإسلامية بكل ما يتصل بالحديث النبوي. ويتصل بالشخصية النبوية التي ضمن الله لها برفع الذكر وتخليد الأثر، وارتفاع المنار، ولسان صدق في العالمين، حتى تخطت هذه البركة وسرت إلى ما اتصل بها عن قريب أو بعيد فأدركت كل من انخرط في سلك الرواة على مدى العصور والأجيال، فرفعت عنه اللثام، وأزالت عنه لوثة النكارة، أو وصمة الجهالة، فدون في كتب أسماء الرجال اسمه واسم أبيه وذكر كثير من أخباره وبحث عن نسبه ونسبته، ودراسته ونشأته، وأمانته وعدالته، حتى أصبح علماً يعرف ومعرفة لا تنكر(٢) وفاق في ذلك على كثير من

= والفقه والتفسير والسير والرجال والأصول والزهد والرقائق وغيرها، وهذه المصنفات كانت بين عينيه فجمع هذه العلوم ما صح منها على شرطه في كتابه الجامع ليكون حجة قاطعة للمسلمين وسماه «الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» فصار هذا الكتاب مرجعاً ومنتهى للعلوم الدينية وتلقته الأمة بالقبول الكامل.

(١) وقد قدم صاحب هذا المقال سماحة الشيخ العلامة الندوي ـ حفظه الله ـ على سائر المصنفات في فن الحديث للمحدث الجليل العلامة محمد زكريا الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ على طلب منه كهذا التقديم على «الأبواب والتراجم للبخاري» وتقديماته على «أوجز المسالك» و«الكوكب الدري» و«جزء حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ» وغير ذلك على مصنفات العلامة الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ.

(٢) فإنه قد دعا النبي ﷺ لمن يحفظ كلامه ويعيه ويؤديه إلى غيره فقال ﷺ: =

المصلحين في أمم أخرى وكثير من العظماء والأبطال ومؤسسي الحكومات حتى قال أحد المستشرقين الكبار ، وهو العالم الألماني المعروف بـ «اسبرنجر» في مقدمته بالإنجليزية على كتاب «الإصابة» المطبوع في كلكته سنة ١٨٥٣ ـ ١٨٦٤ م «لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمئة ألف رجل وشؤونهم»[(١)] لم يقتصر هذا البر والرفد على الأولياء والمحبين من أمته والخادمين لدينه وعلمه بل تعدى ذلك إلى الأعداء الكاشحين ، والمناوئين لدينه فعرف به كثيراً من أعدائه الألداء ممن طوتهم الجاهلية وطمستهم الأيام فبقيت أسماؤهم وكثير من أخبارهم بفضل السيرة النبوية والحديث النبوي ، ولولاهما لذهبت أخبارهم أدراج الرياح وطارت أسماؤهم العنقاء ، فلا عجب إذا كان العصر الغابر والتاريخ الماضي يتمثلان ببيت الشاعر العربي ويخاطبان هذه السحابة التي مرت بهما فأفاضت عليهما الحياء والنماء وينشدان :

فأذهب كما ذهبت غوادي مزنة أثنى عليها السهل والأوعار

ونعود إلى الحديث فنقول : وكان مظهراً من مظاهر هذه العناية

= «نضر الله امرأً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأدَّاها كما سمع» .

(١) «الرسالة المحمدية» لأستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي تعريب : الأستاذ محمد ناظم الندوي (ص ٧١) ، دار الفتح١٩٦٣ م .

الفائقة بهذا الكتاب الفذ عناية العلماء بتراجم الأبواب في الجامع الصحيح فتناوله كل من شرح هذا الكتاب أو علَّق عليه أو عكف على تدريسه وأفرد بعضهم له تأليفات فات كثيراً من المؤلفين أسماؤها شأن العلوم الأخرى ، ومن المؤلفات التي حفظت أسماؤها ، وجاءت الإشارة إليها ، ثلاثة مؤلفات في هذا الموضوع ، ذكرها الكاتب الجلبي[١] المشهور باسم الحاج خليفة (م ١٠٦٧) في كتابه الشهير «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وهي :

١ ـ كتاب للإمام ناصر الدين علي بن محمد بن المنير الإسكندراني[٢] سماه «المتواري على تراجم البخاري»[٣] .

٢ ـ «ترجمان التراجم» لأبي عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري البستي[٤] قال الجلبي : وهو على أبواب الكتاب ولم يكمله .

---

(١) سلف ذكره .

(٢) له شرح على صحيح البخاري في عشر مجلدات سماه «مصابيح الجامع» ، كما في «كشف الظنون» .

(٣) كشف الظنون (ص ٣٦٥) .

(٤) هو عالم المغرب الحافظ العلامة أبو عبد الله محمد بن عمر بن رشيد الفهري (٦٥٧ ـ ٧٢١ هـ) احتفل في صباه بالأدبيات حتى برع ثم رحل إلى فاس ، طلب الحديث وجهد فيه وتفقه ، وأخذ الأصلين عن جماعة ، حج وجاور ، ودخل مصر والشام سمع من ابن دقيق العيد وطبقته ، توفي بفاس (شذرات الذهب : ج ٦ ، ص ٥٦) (البدر الطالع : ج ٢ ، ص ٢٣٤) .

٣ـ «حل أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة» وهي مئة ترجمة للفقيه أبي عبد الله محمد بن منصور ابن حمامة المغراوي السجلماسي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ[١] ، وأضاف إلى هذه الكتب الثلاثة مسند الهند وأستاذ الأساتذة فيها الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي[٢] كتاباً رابعاً في كتابه المفيد «بستان المحدثين»[٣] وهو «تعليق المصابيح على أبواب الجامع الصحيح» لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عمر القرشي المخزومي الإسكندراني الملقب ببدر الدين المعروف

---

(١) لم نعثر على ترجمته.

(٢) هو الإمام العلامة الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي العمري ، سراج الهند ، (١١٥٩ ـ ١٢٣٩ هـ) أخذ عن والده وبعد وفاته أخذ عن الشيخ نور الله والشيخ محمد عاشق والشيخ محمد أمين الكشميري وهم كانوا من أجلة أصحاب والده ، حتى برع في العلوم وحصلت له الملكة الراسخة ، كان أحد أفراد العالم بفضله وعلمه وذكائه وفهمه وسرعة حفظه ، اشتغل بالدرس والإفادة وله خمس عشرة سنة فدرس وأفاد حتى صار في الهند العلم المفرد ، وتخرج عليه كثير من العلماء والمشايخ كالشيخ عبد القادر الدهلوي والإمام أحمد بن عرفان الشهيد والمفتي إلهي بخش الكاندهلوي وغيرهم ، له مصنفات منها تفسير القرآن وقد ضاع معظمها في ثورة الهند ، (نزهة الخواطر : ج ٧ ، ص ٢٦٨) (رجال الفكر والدعوة : الجزء الرابع) العلامة الندوي ـ حفظه الله ـ.

(٣) وهو باللغة الفارسية عربه الأستاذ محمد أكرم الندوي وطبع في مجلة : «البعث الإسلامي» الصادرة من ندوة العلماء ـ بلكهنؤ ـ الهند.

بالدماميني[(١)] المتوفى سنة ٨٢٨ هـ.

هذا ما أثر عن المتقدِّمين والأئمة المحقِّقين في البلاد الإسلامية العربية ، ومن المعروف أن علماء الهند قد سمت همتهم في خدمة علم الحديث ، وتفننوا فيها كل تفنن ، فكانت لهم في كل فن من فنونه وغرض من أغراضه جولة ، وقد انتهت إليهم رئاسة علم الحديث ، والصدارة في تدريسه ونشره في العصر الأخير[(٢)] فلا بد

(١) هو الإمام محمد بن أبي بكر بن عمر المخزومي القرشي المعروف ببدر الدين بن الدماميني المالكي (٧٦٣ ـ ٨٢٨ هـ) عالم بالشريعة وفنون الأدب ، ولد في الإسكندرية واستوطن القاهرة ، سمع من ابن الملقن والنويري وطبقتهما ، درس في الأزهر ثم تحول إلى دمشق ثم حج وعاد إلى مصر فولي قضاء المالكية ثم ترك ورحل إلى اليمن فدرس بجامع زبيد ثم انتقل إلى الهند ومات في مدينة «كَلبركَه» ، قال العلامة عبد الحي الحسني وله شرح على صحيح البخاري سماه : «مصابيح الجامع» أوله الحمد لله الذي في خدمة السنة النبوية أعظم سيادة ، ذكر فيه أنه ألفه للسلطان أحمد شاه المذكور وعلق على أبواب منه ومواضيع يحتوي على غريب وإعراب وبنية ، وقد دخل ابن الدماميني مدينة «أحمد آباد» سنة ٨٢٠ هـ ، ولا بد أن يكون هذا الكتاب قد ألف بين سنتي ٨٣٠ هـ و٨٣٨ هـ ، (نزهة الخواطر : ج ٣ ، ص ٩٥) (شذرات الذهب : ج ٧ ، ص ١٨١) (الضوء اللامع : ج ٧ ، ص ١٨٤) (البدر الطالع : ج ٢ ، ص ١٥٠) (الأعلام : ج/٦ ، ص/٥٧).

(٢) ومن أجل حاملي لوائه الإمام علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهانفوري صاحب كنز العمال (م ٩٧٥ هـ) وتلميذه النابغ =

أن تكون لهم مؤلفات لم تصل إلينا أسماؤها ، وجزى الله عنا وعنهم مؤلف كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند»[١] إذ حفظ لنا الشيء

= العلامة محمد بن طاهر بن علي الفتني صاحب «مجمع بحار الأنوار» ، (م ٩٨٦ هـ)والعلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي (م ١٠٥٠ هـ)والشيخ أبو الحسن السندي الكبير صاحب الحواشي الستة على الصحاح الستة (م ١١٣٨ هـ) والإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي مسند الهند (م ١١٧٦ هـ) والعلامة عبد العزيز بن أحمد ابن عبد الرحيم الدهلوي (م١٢٣٩هـ) والشيخ محمد إسحاق (م١٢٦٢هـ) والشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي (م ١٢٩٦ هـ)وغيرهم من المحدثين والمصنفين الكبار.

(١) هو العلامة الشريف السيد عبد الحي الحسني مؤرخ الهند الكبير (١٢٨٦ ـ ١٣٤١ هـ) ولد في «رايء بريلي» في بيت عريق في العلم والدين فأبوه السيد فخر الدين الحسني من المؤرخين الكبار ، قرأ على الشيخ محمد نعيم الفرنكَي محلي وعلى غيره من علماء لكهنؤ ، ثم سافر إلى بهوفال ، وأخذ الحديث عن العلامة المحدث حسين بن محسن الأنصاري اليماني ، وقرأ الكتب الدرسية على الشيخ القاضي عبد الحق الكاملي حتى فاق أقرانه وتضلع في العلوم.
كان متألماً بواقع المسلمين حريصاً على إصلاحهم ، فلبى دعوة ندوة العلماء حتى اختير مديراً لها واستمر على ذلك حتى وافته المنيَة.
كان راسخ القدم في آداب اللغة العربية والفارسية ، كاتباً مترسِّلاً ، سائل القلم في العربية ، ومن أهم مؤلفاته : «نزهة الخواطر» في ثماني مجلدات كبار ، يحتوي على أربعة آلاف وخمسمئة ترجمة ونيف ، «والثقافة الإسلامية في الهند» و«الهند في العهد الإسلامي» وغيرها ، أعقب ابنين=

الكثير من مؤلفات علماء الهند في علم الحديث واستقصاها استقصاءً كبيراً ولكنه لم يذكر مما ألف في موضوع الأبواب والتراجم إلا رسالة[١] لشيخ مشايخ الهند وأستاذ الأساتذة وناشر علم الحديث في هذه الديار الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي[٢] المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ، وهي رسالة وجيزة المباني غزيرة المعاني تكاد تكون كلها أصولاً كلية ونكتاً حكمية واللب اللباب في فهم التراجم والأبواب ، شأنه في كل موضوع يتطرقه وبحث يتناوله ، ومن المرجح أن مؤلف الثقافة لم يطلع على رسالة العلامة الشيخ محمود حسن الديوبندي[٣] المعروف «بشيخ الهند»

= وبنتين ، فضيلة الدكتور عبد العلي الحسني ، مدير ندوة العلماء الأسبق والعلامة الشيخ أبا الحسن علي الحسني الندوي ـ حفظه الله ـ وهو داعية موهوب وعلم من أعلام الإسلام ، وصاحب هذا الكتاب .

(١) طبعتها باسم رسالة «شرح تراجم صحيح البخاري» دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٢٣ هـ ، وهي تقع في ١٢٩ صفحة بالقطع المتوسط .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) هو الشيخ العلامة المحدث محمود حسن بن ذي الفقار علي الحنفي الديوبندي (١٢٦٨ ـ ١٣٣٩ هـ) ولد في «بريلي» ونشأ «بديوبند» وقرأ على أساتذة ولا سيما العلامة محمد قاسم النانوتوي ، وانتفع به كثيراً حتى برع في العلوم ، وولي التدريس «بديوبند» ثم رأس التدريس بها ، ونفع الله به في هذه الفترة نفعاً عظيماً .
كان قد وضع خطة لتحرير الهند من حكم الإنجليز ، وسافر إلى الحجاز =

فإنما طبعت بعد وفاة مؤلف الثقافة[١].

هذا جلُّ ما انتهى إلينا من أخبار الكتب والرسائل في موضوع الأبواب والتراجم للبخاري في الماضي[٢].

وسر الغموض في هذه الأبواب والتراجم تنوع[٣] مقاصد

= وقابل حكماء الترك، وحاول ولكن اكتشفت الحكومة الإنجليزية هذه الخطة وألقت القبض عليه، ومكث في السجن ثلاث سنين عاكفاً على العبادة والإفادة ثم وصل إلى الوطن مكرماً مبجلاً، وقد مالت إليه القلوب وتقاطر الناس لاستقباله وزيارته، وقد أضناه الأسر ووهنت قواه ولكنه ما دام مشتغلاً بعمله حتى وافاه الأجل.

كان دائم الابتهال، سليم الصدر، جيد الثقة، والمشاركة في العلوم، عالي المهمة بعيد النظر، قليل الاشتغال بالتأليف بالنسبة إلى غزارة علمه وكثرة درسه.

(١) والكتاب يقع في ٧٢ صفحة وهو في اللغة الأوردية وفي آخره نحو أربع صفحات بالعربية، وهو بمذكرات معلم أشبه منه بكتاب مستقل، طبع في مطبعة «الأمان» في نكَينه، بجنور.

(٢) ذكر صاحب المقال كتاب العلامة محمد زكريا الكاندهلوي في نهاية مقاله بشيء من البسط والتفصيل.

(٣) ظن بعض الناس بجملة «أن فقه البخاري في تراجمه» أن الإمام خص التراجم في كتابه للمسائل الفقهية ولكن الحقيقة أن الفقه هنا ليس له معنى اصطلاحي خاص بل هو يدل على الدقة في العلوم والتضلع والبصيرة فيها كما هو معناه في دعاء النبي ﷺ لعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ «اللهم فقهه في الدين» فهذه الأبواب والتراجم ـ التي كتبها الإمام في =

المؤلف الإمام ، وبعد مراميه ، وفرط ذكائه ، وحدَّة ذهنه وتعمُّقه في فهم الحديث ، وحرصه على الاستفادة والإفادة منه أكبر استفادة ممكنة ، فهو كنحلة حريصة توَّاقة تجتهد أن تتشرب من الزهرة آخر قطرة من الرحيق ، ثم تحولها إلى عسلٍ مصفى فيه شفاءٌ للناس.

وشأن الإمام البخاري مع الحديث النبوي الصحيح شأن العاشق الصادق والمحب الوامق مع الحبيب الذي أسبغ الله عليه نعمة الجمال والكمال ، وكساه ثوباً من الروعة والجلال ، فهو لا يكاد يملأ عينيه منه وهو كلَّما نظر إليه اكتشف جديداً من آيات جماله ، فازداد افتتاناً وهياماً ، ورأى جماله يتجدَّد في كل حين ، وإذا الوجه غير الوجه والجمال غير الجمال ، فلا قديم في الحب ولا إعادة عند المحب وصدق الشاعر:

يــزيــدك وجهــه حسنــاً إذا مــا زدتــه نظــرا

ولـذلـك نـرى الإمـام البخـاري لا يكـاد يشبـع مـن استخـراج المسائل ، واستنباط الفوائد ، والنزول إلى أعماق الحديث ،

= روضة النبي ﷺ بين قبره ومنبره على صاحبهما الصلاة والسلام ـ لها مقاصد متنوعة تدل على تضلُّع الإمام ودِقَّته في العلوم ، فربما يستخرج منها المسائل الفقهية ، وربما يشير بها إلى المسائل الكلامية ، وربما يبين طريق الجمع بين الأحاديث ، وربما يريد التوجيه إلى أمر لم يصل إليها الآخرون وهكذا ، وبهذا التنوع وقع الاختلاف بين أفهام العلماء ومقاصد المؤلف الإمام في تراجمه.

والتقاط الدرر منه ، والخروج على قرائه بها حتى يذكر حديثاً واحداً أكثر من عشرين مرة.

وروى حديث بريرة عن عائشة أكثر من أربع وعشرين مرة واستخرج أحكاماً وفوائد جديدة.

وروى حديث جابر قال: كنت مع النبي ﷺ في غزوة فأبطأ بي جملي وأعيا ، . . . الحديث ، أكثر من عشرين مرة.

وروى حديث عائشة أن النبي ﷺ ، اشترى طعاماً من يهودي إلى أَجَلٍ ورهنه درعاً من حديد في أحد عشر موضعاً ، وعقد له أبواباً وتراجم لها[١].

وروى قصة موسى والخضر في أكثر من عشرة مواضع.

وأخرج حديث كعب بن مالك في تخلفه عن غزوة تبوك في أكثر من عشرة مواضع وفوائده أكثر من خمسين.

وروى حديث أسماء في كسوف الشمس وخطبته ﷺ في عشرة مواضع.

وروى حديث «إن من الشجرة لشجرة لا يسقط ورقها (الحديث) واستخرج منه فوائد جديدة»[٢].

---

(١) «عمدة القاري» للعلامة العيني (ج ٥ ، ص ٤١٥).

(٢) انظر: هذه الإحصائيات في كتاب «دليل القاري إلى مواضع الحديث في صحيح البخاري» وضعه الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان ، وطبع =

فكأنه تأخذه النشوة والطرب عند رواية الحديث فلا يمل من إعادته وينشد بلسان الحال:

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره هو المسك ما كررته يتضوع

وكأنه يتمثل ببيت الشاعر:

وحدثتنا يا سعد عنهم فزدتنا شجوناً فزدنا من حديثك يا سعد

ثم يشتعل ذكاؤه ـ الذي ضرب فيه بسهم وافر ـ ويتوقَّد ذهنه وتسيل قريحته، فيفلت زمام التأليف ويرسل النفس على سجيتها، ويستخرج من حديث واحد نتائج وفوائد لا تدور بخلد كثير من الأذكياء، وما ذلك إلا لحدَّة ذهنه وإفراط حبِّه. ولم يزل المحب ملهماً للبدائع ملهباً للقرائح، والمحب يقع على ما لا يقع عليه المتأمِّل المرهق لجسمه المتعب لعقله.

وسر آخر للغموض في تراجم الأبواب أن المؤلف الإمام غير خاضع للأساليب التأليفية والقوانين الوضعية، التي جرى عليها المؤلفون في فنّ الحديث في عصره وبعد عصره، بل هو واضع طريقة خاصة في التأليف، وإمام مذهب خاص، وهو لم يقتصر على ما يتبادر إليه الذهن من الأحكام الفقهية المستخرجة من الأحاديث شأن أقرانه ومن سبقه من المؤلفين في علم الحديث والفقه، بل يستخرج من الأحاديث فوائد علمية وعملية لا تدخل

= بالمدينة المنورة ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ.

تحت باب من أبواب الفقه المعروفة.

وقد أحسن الإشارة إلى ذلك أكبر شراح كتابه وأعرفهم بمراده العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني[١] في مقدمة كتابه الفريد (فتح الباري) قال: ثم رأى أن لا يخلِّيه من الفوائد الفقهية والنكت الحكمية، فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرَّقها في أبواب الكتاب بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام، فانتزع منها الدلالات البديعة، وسلك في الإشارة إلى تفسيرها السبل الوسيعة، قال الشيخ محيي الدين نفع الله به: ليس مقصود البخاري الاقتصار على الأحاديث فقط بل مراده الاستنباط منها والاستدلال لأبواب أرادها، ولهذا المعنى أخلى كثيراً من الأبواب عن إسناد الحديث واقتصر على قوله فيه: فلان عن النبي ﷺ أونحو ذلك، وقد يذكر المتن بغير إسناد وقد يورده معلّقاً وإنما يفعل هذا لأنه أراد الاحتجاج للمسألة التي ترجم لها وأشار إلى الحديث لكونه معلوماً، وقد يكون مما تقدم وربما تقدم قريباً، ويقع في كثير من أبوابه الأحاديث الكثيرة وفي بعضها ما فيه حديث واحد وفي بعضها ما فيه آية من كتاب الله وبعضها لا شيء فيه البتة، وقد ادعى بعضهم أنه صنع ذلك عمداً وغرضه أن يبين أنه لم يثبت عنده حديث بشرطه في المعنى الذي ترجم عليه، ومن ثمة وقع في بعض من نسخ الكتاب

---

(١) قد سلف ذكره.

ضم باب لم يذكر فيه حديث إلى حديث لم يذكر فيه باب فأشكل فهمه على الناظر فيه[١].

وقد زاد على ذلك شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي[٢] فأحسن وأجاد وأوضح التفاوت الواقع بين أفهام العلماء ومقاصد المؤلف الإمام ، وكأنه يقول بلسان الشاعر:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

قال رحمه الله: «وكثيراً ما يستخرج الآداب المفهومة بالعقل ، بالكتاب والسنة والعادات الكائنة في زمانه ﷺ ، ومثل هذا لا يدرك حسنه إلا من مارس كتب الآداب ، وأجال عقله في ميدان آداب قومه ، ثم طلب لها أصلاً من السنة»[٣].

ومَن أكثر قراءة الجامع الصحيح درساً وتدريساً وأمعن النظر فيه شهد بصدق شيخ الإسلام فيما قاله: وإصابته الصميم ، ووجد شيئاً كثيراً مما يتأدَّب به ويتخلّق بأخلاق الرسول ﷺ وعادات الصحابة منثوراً في ثنايا هذا الكتاب العظيم ، حتى يستطيع أن يستخرج منه كتاباً آخر ، ويسميه «الأدب المفرد»[٤] أو بما شاء ، وقد يستهين

(١) مقدمة فتح الباري: ص ٦.

(٢) قد سلف ذكره.

(٣) «شرح تراجم أبواب صحيح البخاري» ، ص ٥ ، طبع حيدر آباد ١٣٢٣ هـ.

(٤) هذه إشارة إلى كتاب المؤلف الإمام الآخر «الأدب المفرد» وقد تأخر طبعه وما اعتني به كما كان حقه ، وعليه شرح واحد للشيخ الفاضل فضل الله بن=

المختص بالفقه والحديث بقيمة هذه الثروة العظيمة وقد يلتوي عليه فهمها ، وحكمة وضعها في هذا الكتاب الذي أفرد لجمع الأحاديث الصحيحة على شروط الإمام البخاري ، ولكن نظر المحب يختلف عن نظر غيره ، وقد أراد الإمام البخاري أن يكون هذا الكتاب نبراساً للساري ، وصورة لما كان عليه الصحابة والمسلمون في عصر النبوَّة .

والسبب الثاني لتعقد بعض ما أورده في هذا الكتاب من الأبواب والتراجم والتوائها على فهم كثير من الشرَّاح والمدرسين ، حتى قال الكرماني[١] : «إن هذا قسم عجز عنه الفحول البوازل من الأعصار ، والعلماء الأفاضل من الأمصار فتركوها بأعذار» هو عدم اطلاع أكثرهم على ما كان يسود في عصره من آراء وأقوال يشتد حولها

= أحمد علي بن العارف الكبير العلامة الشيخ محمد علي المونجيري مؤسس ندوة العلماء ، سماه : «فضل الله الصمد في شرح الأدب المفرد» .

(١) هو العلامة المحدث الكبير محمد بن يوسف بن علي سعيد ، شمس الدين الكرماني (٧١٧ ـ ٧٨٦ هـ) أصله من «كرمان» ، أخذ عن أبيه بهاء الدين وجماعة ببلدته ثم ارتحل إلى «شيراز» فأخذ عن القاضي عضد الدين ولازمه اثنتي عشرة سنة ، قال ابن حجي : تصدى لنشر العلم ببغداد ثلاثين سنة ، وأقام مدة بمكة وفيها فرغ من تأليف كتابه «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» خمسة وعشرون جزءاً صغيراً ، وله غير ذلك من التصانيف ، سمع منه جماعة منهم القاضي محب الدين البغدادي وغيره مات راجعاً من الحج في طريقه إلى «بغداد» ودفن فيه ، (الدرر الكامنة : ج ٤ ، ص ٣١٠) (الأعلام : ج ٨ ، ص ٢٧) .

الخصام ، ويكثر فيه القيل والقال ، وما ذهب إليه بعض معاصريه ومن تقدمه بقليل من مذاهب ، فإنه يعقد باباً ويأتي بترجمة وما قصده من ذلك إلا نقض ما انتشر في الناس ، وجرى عليه العامة أو نقل عن عالم وهو عنده مخالف للحديث وما ثبت من السنة ، فهو يؤدي بذلك أو ينظر إليه من طرف خفيّ ، ولا يستملح ذلك ولا يفهم سر إيراده له إلا مَن اتسع علمه وأحاط بأكثر ما كان يوجد في عصره من الأخلاق والعادات والأقوال والآراء ، وكذلك اطلع على كتب معاصريه أو من سبقه بقليل كمصنف عبد الرزاق(١) ومصنف ابن أبي شيبة(٢) وغيرهما وقد أشار إلى هذه النكتة الشيخ ولي الله الدهلوي في بعض مباحثه في كتابه المتقدم ذكره ، إذ قال : « وأكثر ذلك تعقبات وتبكيتات على عبد الرزاق وابن أبي شيبة في تراجم مصنفيهما ؛ إذ شواهد الآثار تروى عن الصحابة والتابعين في

(١) هو العلامة المحدث الحافظ عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصنعاني (١٢٦ ـ ٢١١ هـ) من حفاظ الحديث الثقات ، كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث ، روى عن معمر وابن جريج والأوزاعي والثوري وروى عنه أحمد بن حنبل وإسحاق وغيرهما ، قال الذهبي ـ رحمه الله ـ: «كان ـ رحمه الله ـ من أوعية العلم ، له كتب أشهرها مصنفه في الحديث جمع فيه الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة والتابعين ، (تهذيب التهذيب ج ٦ ، ص ٢١٠) (وفيات: ج ١ ، ص ٣٠٣) (ميزان: ج ٢ ، ص ١٢٦) (شذرات: ج ٢ ، ص ٢٧) (تذكرة الحفاظ: ج ١ ، ص ٣٦٤) (الأعلام: ج ٣ ، ص ٣٥٣).

(٢) سلف ذكره.

مصنفيهما ، ومثل هذا لا ينتفع به إلا من مارس الكتابين واطلع على مافيهما»[١] .

وسبب آخر لهذا الغموض والتعقد ، هو عجز العلماء والشراح عن حله ومعاناتهم في ذلك الشدة والمشقة حتى التجأ كثير منهم إلى تأويلات وتكلفات لا يسيغها الذوق السليم ، حتى قال الباجي[٢] :

«وإنما أوردت هذا هاهنا لما عني به أهل بلدنا من طلب معنى يجمع بين الترجمة والحديث الذي يليها وتكلفهم في ذلك من تعسف التأويل ما لا يسوغ» هو أن الكتاب لم يزل في دور التنقيح والتهذيب والحذف والزيادة ، شأن الكتب التي يعنى بها أصحابها أشد عناية ، ويصبون فيها علمهم ويعتبرونها عمدة بضاعتهم ورأس مالهم وزادهم في الآخرة ، وشأن العلماء الذين لا يزال عقلهم في نبوغ وعلمهم في نمو ، فلا يزال عقلهم مشغولاً بهذا الكتاب

---

(١) رسالة شرح التراجم للإمام ولي الله الدهلوي : ص ٥ .

(٢) هو الحافظ العلامة سليمان بن خلف بن سعيد التجيبي القرطبي أبو الوليد الباجي (٤٠٣ ـ ٤٧٤ هـ) فقيه مالكي كبير من رجال الحديث أصله من بطليوس ومولده في «باجة» بالأندلس ، رحل إلى الحجاز فمكث ثلاثة أعوام وسافر إلى «بغداد» والموصل ودمشق وحلب ، ثم ولي القضاء في بعض أنحاء «الأندلس » روى عنه الخطيب وابن عبد البر وخلق سواهما ، له كتب أشهرها : «المنتقى في شرح الموطَّأ» و«شرح المدونة» ، توفي بالمرية (تذكرة الحفاظ :ج ٣ ، ص ١١٧٨) (وفيات : ج ١ ، ص ٢١٥) (شذرات : ج ٣ ، ص ٣٤٤) (الأعلام : ج ٣ ، ص ١٢٥) .

ولا يزال قلمهم يتناوله بالتحسين والتحبير ، وحياة الإمام البخاري لم يكن فيها هدوء واستقرار بل كان ينتقل من بلد إلى بلد ومن محنة إلى محنة ومن جفاء إلى جفاء حتى لقي ربه .

ويدل على ذلك ما نقله الإمام أبو الوليد الباجي المالكي في مقدمة كتابه في أسماء رجال البخاري ، فقال: أخبرني الحافظ أبو ذر عبد الرحيم بن أحمد الهروي(١) ، قال : حدثنا الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المستملي(٢) قال : انتسخت كتاب البخاري من أصله الذي كان عند صاحبه محمد بن يوسف الفربري(٣) فرأيت فيه أشياء لم تتم وأشياء مبيضة ، منها تراجم لم

---

(١) هو الإمام العلامة الحافظ أبو ذر عبد الرحيم بن أحمد الأنصاري المالكي ، ابن السماك شيخ الحرم الهروي (٣٥٥ ـ ٤٣٤ هـ) سمع أبا إسحاق المستملي والدارقطني وأبا الهيثم الكشميهني ، وروى عنه أبو الوليد الباجي والخطيب البغدادي وغيرهما ، كان ثقة ضابطاً زاهداً ورعاً ، جاور ثم تزوج في الحجاز وسكن السروات ، فكان يحج كل عام ، له مصنفات ، (تذكرة الحفاظ : ج ٣ ، ص ١١٠٣) .

(٢) هو الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم البلخي المعروف بالمستملي ، محدث ثقة له «معجم الشيوخ» ، توفي سنة٣٧٦ هـ ، (شذرات : ج ٣ ، ص ٨٦) (الأعلام : ج ١ ، ص ٢٣) .

(٣) هو الحافظ محمد بن يوسف بن قطر أبو عبد الله الفربري (٢٣١ ـ ٣٢٠ هـ) أوثق من روى صحيح البخاري عن مصنفه وأشهرهم ، سمعه منه مرتين : الأولى : سنة ٢٤٨ هـ ، والثانية : سنة ٢٥٢ هـ . ورواه عنه كثيرون نسبته إلى «فربر» من بلاد «بخارى» ، توفي في شوال =

يثبت بعدها شيئاً ، وفيها أحاديث لم يترجم لها فأضفنا بعض ذلك ، قال الباجي : ومما يدل على صحة هذا القول ، أن رواية أبي إسحاق المستملي ورواية أبي محمد السرخسي(١) ورواية أبي الهيثم الكشميهني(٢) ورواية أبي زيد المروزي(٣) مختلفة بالتقديم والتأخير مع أنهم انتسخوا من أصل واحد وإنما ذلك بحسب ما قدر كل واحد منهم فيما كان في طرة أو رقعة مضافة أنه من موضع ما ، فأضافه

= (شذرات : ج ٢ ، ص ٢٨٦) (الأعلام : ج ٧ ، ص ١٤٨).

(١) الإمام المحدث الصدوق المسند أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي (٢٩٣ ـ ٣٨١ هـ) سمع الصحيح في سنة ٣١٦ من الفربري ، حدث عنه الهروي وغيره ، قال : قرأت عليه وهو ثقة صاحب أصول حسان . (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٩٢) (شذرات الذهب : ٣/ ٨٦).

(٢) المحدث الثقة أبو الهيثم محمد بن مكي بن محمد الكشميهني ، حدث صحيح البخاري مرات عن الفربري وحدث عن غيره وأخذ عنه أبو ذر الهروي وآخرون توفي في سنة (٣٨٩ هـ) ، (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٩١) (شذرات ٣/ ١٣٦).

(٣) هو الشيخ الإمام المفتي القدوة الزاهد أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد الله المروزي ، (٣٠١ ـ ٣٧١ هـ) سمع الصحيح من الفربري ، وأخذ عنه وعن غيره ، حدث عنه الحاكم والدارقطني وآخرون ، قال الحاكم : كان أحد أئمة المسلمين ، (سير أعلام النبلاء : ١٦/ ٣١٤) (شذرات الذهب : ٣/ ٧٦) ، (البداية والنهاية : ١١/ ٢٩٩) (تاريخ بغداد ١/ ٣١٤).

إليه ، ويبين ذلك أنك تجد ترجمتين وأكثر من ذلك متصلة ليس بينها أحاديث[١] .

وأيده العلامة الحافظ ابن حجر صاحب فتح الباري ، فقال: «وهذه قاعدة حسنة يفزع إليها حيث يتعسر وجه الجمع بين الترجمة والحديث وهي مواضع قليلة جداً[٢]» .

وعلى كل فهذه بعض أسباب لتعقد الأبواب والتراجم في هذا الكتاب الذي اعتنت به الأمة أشد اعتناء بعد كتاب الله ، وصلت إليها دراسة قاصرة لمن لم يكن صاحب اختصاص في فن الحديث ، وقد يكون أكثر من ذلك ، ولا آخر في عالم العلم والتأمل والبحث ، وفوق كل ذي علم عليم .

ولم يزل الموضوع غضاً طرياً يطرقه كل باحث في علم الحديث ، وكل دارس ومدرِّس للجامع الصحيح ، وكان الموضوع في حاجة ـ بعد ضياع كتب المتقدِّمين الأربعة التي تقدم ذكرها ـ إلى كتاب أكمل وأشمل وأجمع وأوعى ، فجاء هذا الكتاب[٣] ـ والحمد لله ـ وافياً بالغرض ، مسعفاً بالحاجة لصدق قول الأولين

(١) مقدمة فتح الباري : (ص ٦) .
(٢) مقدمة فتح الباري (ص ٦) .
(٣) ألفه العلامة المحدث الجليل الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ ، وسماه : «الأبواب التراجم للبخاري» .

(كم ترك الأول للآخر) وكان المؤلف[1] ـ رحمه الله ـ قد ذكر في كتابه: «مقدمة كتاب لامع الدراري» بكل من أصول الشيخ الإمام ولي الله الدهلوي، والقواعد الكلية للتطبيق بين الأبواب والتراجم، وأبواب لا ترجمة لها، وكذلك كل ما جاء في رسالة الشيخ العلامة محمود حسن الديوبندي[2] ما وجد من فوائد في دروس الشيخ الكبير مولانا رشيد أحمد الكَنكَوهي[3] وكذلك كل ما وجده من أصول وقواعد في كلام الحافظ ابن حجر[4] والقسطلاني[5].

(١) مازال مشتغلاً بالإفادة والعبادة حتى وافاه الأجل في ١/ شعبان ١٤٠٢ هـ بالمدينة المنورة، ودفن بالبقيع.

(٢) مضت ترجمته.

(٣) سلف ذكره.

(٤) مضت ترجمته.

(٥) هو الإمام العلامة الحجة المحدث الفقيه الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد القسطلاني المصري الشافعي (٨٥١ ـ ٩٢٣ هـ) أخذ عن خالد الأزهري والجلال البكري وغيرهما، قرأ صحيح البخاري في خمسة مجالس على الشاوي حج غير مرة، وله مصنفات أشهرها شرحه على صحيح البخاري سماه: «إرشاد الساري» يقول الحضرمي في «النور السافر»: وبالجملة فإنه كان حافظاً متقناً، جليل القدر، حسن التقرير والتحرير، لطيف الإشارة بليغ العبارة، حسن الجمع والتأليف، لطيف الترتيب والتوصيف، توفي بالقاهرة، (شذرات الذهب: ج ٨، ص ١٢١).

والحافظ العيني[١] ، فاستوعبها وزاد عليها مما كان خاطره أبا عذره ، ولم يسبق إليه حتى بلغ عدد هذه الأصول الكلِّية إلى سبعين أصلاً وقاعدة فاحتوى على علم غزير لم نجده في كتاب واحد ـ والغيب عند الله ـ فاقترحت على المؤلف كما اقترح كثير من تلاميذه تجريد هذا الجزء وطبعه ككتاب مستقل فقبل هذا الاقتراح مشكوراً محسناً إلى المشتغلين بتدريس هذا الكتاب العظيم بصفة خاصة والخادمين لعلم الحديث بصفة عامة مستحقاً ثناءهم وتقديرهم ودعواتهم الصالحة ، وما عند الله أوفى وأبقى وأعظم وأجل ، وكان قد تناول كل كتاب من كتب الجامع الصحيح وتكلم على أبوابها وتراجمها باباً باباً وترجمة ترجمة ، فجاء الكتاب سفراً ضخماً قد يقع في عدة أجزاء ، وأصبح الكتاب موسوعة أو دائرة معارف بالتعبير الحديث في كل ما يتصل بالأبواب والتراجم في الجامع الصحيح للبخاري مغنياً عن غيره ، وبذلك أغنى طلبة علم الحديث ومدرِّسيه عن تتبُّع هذا الموضوع في كل كتاب والتقاط الدرر من كل بحر ، ووفَّر عليهم وقتاً طويلاً وعناءً كبيراً ، ولا يعرف قيمة هذا الكتاب وما فتح الله به على مؤلفه الرأي السديد والقول الصواب وما أتى به فيه من لباب النقول وصفوة الأقوال ومحصول العقول والألباب ، إلا من مارس هذه الصناعة واشتغل

---

(١) مضت ترجمته.

بتدريس الكتاب مدة طويلة ولقي الجهد والعناء في حل غوامضه وفك مشكلاته وقد قال القائل :

إنمـــــا يعـــــرف ذا الفضــ ــــــل مـــن النـــاس ذووه

وندعو الله أن ينفع بهذا الكتاب طلبة العلم وأساتذة الحديث كسائر مؤلفاته ويعز به العلم والدين ، والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



الإمام مسلم بن الحجَّاج القشيري وكتابه الصحيح ونظرات على بعض شروحه

هو الإمام الحافظ حجة الإسلام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري يقال له: ولد سنة أربع ومئتين، وأول سماعه سنة ثماني عشرة ومئتين، وممن سمع عنهم الإمام أحمد بن حنبل(١) وخلق كثير، وقال أحمد بن سلمة(٢): رأيت

(١) الإمام شيخ الإسلام الحافظ الحجة الثبت أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المروزي ثم البغدادي أحد الأئمة الأربعة ذوو المذاهب المتبعة (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) أخذ عن الشافعي وأبي يوسف وابن عيينة وأقرانهم وأخذ عنه ابن المديني وأمثاله، وله مناقب جمّة، فليراجع سير أعلام النبلاء: (١١/ ١٧٧ ـ ٣٥٧)، وتاريخ بغداد: (٤/ ٤١٢)، وتذكرة الحفاظ: (٢/ ٤٣١)، ورجال الفكر والدعوة، الجزء الأول للعلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي.

(٢) الحافظ الحجة العدل أحمد بن سلمة بن عبد الله، رفيق مسلم في الرحلة سمع قتيبة وإسحاق بن راهويه ومحمد بن مهران الجمال وخلقاً كثيراً، وجمع وصنّف، حدث عنه أبو زرعة وأبو حاتم وابن وارة وغيرهم، توفي سنة ست وثمانين ومئتين من الهجرة، سير أعلام النبلاء =

أبا زرعة[١] وأبا حاتم[٢] يقدمان مسلم بن الحجاج في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما ، وقال أبو قريش[٣] : حفاظ الدنيا

= (١٣/ ٢٧٣) ، وتاريخ بغداد (٤/ ١٨٦) ، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٦٣٧).

(١) الإمام سيد الحفاظ عبيد الله بن عبد الكريم محدث الرّي مولده بعد نيف ومئتين ، سمع من أحمد بن حنبل والقعنبي ويحيى بن بُكير ، وطبقتهم ، وارتحل لطلب الحديث إلى الحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان وكتب مالا يوصف بكثرة ، وكان إماماً ربّانياً حافظاً متقناً مكثراً أخذ عنه يونس بن عبد الأعلى ومسلم بن الحجاج وأبو حاتم وغيرهم ، توفي سنة أربع وستين ومئتين من الهجرة ، سير أعلام النبلاء : (١٢/ ٦٥) ، تاريخ بغداد : (١٠/ ٣٢٦) ، تذكرة الحفاظ : (٣/ ٥٥٧) ، تهذيب التهذيب (٧/ ٣٠).

(٢) الإمام الحافظ الناقد محمد بن إدريس بن المنذر بن داود الحنظلي الغطفاني (١٩٥ ـ ٢٧٧ هـ)سمع من عبيد الله بن موسى ومحمد بن عبد الله الأنصاري والأصمعي وأقرانهم ، وكان أحد أئمة الحفاظ والأثبات ، وكان من بحور العلم طوّف البلاد وبرع في المتن والإسناد وجمع وصنّف وجرح وعدّل وصحّح وعلّل ، أخذ عنه ابنه عبد الرحمن ويونس بن عبد الأعلى وأبو زرعة الرازي رفيقه وقرابته وغيرهم ، سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٤١) ، تاريخ بغداد (٢/ ٧٣) ، تذكرة الحفاظ (٢/ ٥٦٧) ، تهذيب التهذيب (٩/ ٣١).

(٣) الإمام العلامة الحافظ أبو قريش محمد بن جمعة بن خلف القهستاني الأصم ، ولد سنة نيف وعشرين ومئتين ، سمع أحمد بن منيع وأبا كريب وسلمة بن سبيب وطبقتهم بالرّي والكوفة والبصرة والحجاز ، وحدث عنه أبو حامد بن الشرقي ، وأبو علي النيسابوري ، وأبو بكر الشافعي =

أربعة وذكر منهم مسلماً ، وقال محمد بن الماسرجسي : سمعت مسلماً يقول: صنفت هذا الصحيح من ثلاثمئة ألف حديث مسموعة.

قال ابن الشرقي[١] : سمعت مسلماً يقول ما وضعت شيئاً في كتابي هذا المسند إلا بحجة وما أسقطت منه شيئاً إلا بحجة[٢]

= وغيرهم ، كان من الحفاظ المتقنين كثير السماع والرحلة ، توفي سنة ٣١٣ هـ ، سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٠٤) تاريخ بغداد (٢/ ١٦٩) ، تذكرة الحفاظ (٢/ ٧٦٦).

(١) الإمام العلامة الثقة حافظ خراسان أبو حامد أحمد بن محمد الحسن النيسابوري ابن الشرقي تلميذ مسلم ، سمع عنه وعن الذهلي وأبي حاتم الرازي ، وحدث عنه أبو علي النيسابوري أبو العباس بن عقدة وأبو أحمد بن عدي وغيرهم ، وكان ثبتاً حافظاً متقناً ، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٧) ، تاريخ بغداد (٤/ ٢٤٦) ، تذكرة الحفاظ (٣/ ٨٢١).

(٢) وذكر في كتابه: «ليس كل شيء عندي صحيح وضعته ها هنا ، إنما وضعت هاهنا ما أجمعوا عليه» [صحيح مسلم باب التشهد في الصلاة] وأراد بالإجماع ما ذكره البُلقيني ، إنه قدم أحاديثه على الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعثمان بن أبي شيبة وسعيد بن منصور الخراساني فأجمعوا على صحتها وبعد فراغه من التأليف قدمه على الحافظ أبي زرعة الرازي وحذف بعض الأحاديث التي أشار إليها الحافظ بأنه فيها شيء من العلة القادحة ، فصار هذا الكتاب من أصح الكتب في هذا الباب بعد صحيح البخاري ، حتى قال الإمام في مقدمة هذا الكتاب: لو أن أهل الحديث يكتبون مئتي سنةً الحديث فمدارهم على هذا المسند يعني صحيحه.

مات مسلم في رجب ٢٦١ هـ(١).

وإن صحيح مسلم ـ فضلاً عن كونه من الصحاح الستة ، باتفاق أهل الفن والنقاد وقبول الأمة لهذا الحكم ـ يمتاز بمزايا شأن الأعمال العلمية والمجهودات الفنية التي تصدر عن رجال قد يشتركون في فن وفي عصر ، وفي الإخلاص والجهد ، ويلتقون على أساتذة وأئمة هذا الشأن ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠].

نذكر بعضها وأهمها :

١ ـ هو أسهل متناولاً من حيث إنه جعل لكل حديث موضعاً واحداً يليق به ، جمع فيه طرقه التي ارتضاها واختار ذكرها ، وأورد في أسانيده المتعددة وألفاظه المختلفة ، فيسهل على الطالب النظر في وجوهه واستثمارها وتحصل له الثقة بجميع ما أورده مسلم من طرقه(٢).

٢ ـ ومما يمتاز به صحيح مسلم أن مسلماً رحمه الله يسوق الحديث بكامله في الباب الواحد ـ لو كان الحديث طويلاً ـ كما هو الحال في المزية الأولى ، حيث يجمع طرقه فيه ، ولا يذكر ذلك في أبواب أو كتبٍ مختلفة إلا نادراً.

---

(١) ملخص من كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي .
(٢) ذكره النووي في شرح لمسلم .

٣ ـ ومما يمتاز به صحيح مسلم أنه ليس فيه بعد الخطبة ، إلا الحديث السّرد ، ولم يمازجه غير صحيح من أقوال التابعين وأتباع التابعين والنصوص الفقهية ، ولم يتصد لاستنباط الأحكام.

٤ ـ ومما يمتاز به صحيح مسلم اعتناؤه بضبط اختلاف لفظ الرواة حدثنا فلان وفلان ـ واللفظ لفلان ـ وإذا كان بينهما اختلاف في حرف من متن الحديث أو صفة الراوي أو نسبه أو نحو ذلك فإنه يبينه ، كما يمتاز صحيح مسلم بأنه ثاني مصنَّف يجمع الحديث الصحيح المجرد إذ الأول صحيح البخاري(١).

ويقول العلامة الإمام الشيخ عبد العزيز بن الإمام حكيم الإسلام

---

(١) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري حبر الأمة وأمير المؤمنين في الحديث (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ) ولد في بخارى ونشأ يتيماً ، قام برحلة طويلة في طلب الحديث فزار خراسان والعراق والشام ومصر والعراق ، وسمع من نحو ألف شيخ ، منهم الإمام أحمد بن حنبل ، كان من أوعية العلم ، يتوقَّد ذكاءً لم يخلف بعده مثله في سَيَلان ذهنه وسرعة حفظه ، له مصنَّفات شهيرة أشهرها في الآفاق صحيحُهُ ، هو يقول: صنفت كتاب الصحيح بست عشرة سنة خرجته من ستمئة ألف حديث ، وجعلته حجَّة ، توفي ليلة الفطر في شوال ، تذكرة الحفاظ: (٢/ ١٢٠) تهذيب التهذيب: (٩/ ٤٧) وفيات: (١/ ٤٥٥).

الشيخ أحمد بن عبد الرحيم[1] المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي ـ رحمه الله تعالى ـ.

وقد قيّض الله في عصرنا الحاضر وفي محيطنا العلمي والديني والتأليفي العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني[2] الديوبندي المتوفى

(١) هو الإمام العلامة الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي العمري سراج الهند (١١٥٩ ـ ١٢٣٩ هـ) ، أخذ عن والده وبعد وفاته أخذ عن الشيخ نور الله والشيخ محمد عاشق والشيخ محمد أمين الكشميري ، وهم كانوا من أجلّة أصحاب والده ، حتى برع في العلوم وحصلت له الملكة الراسخة ، كان أحد أفراد العالم بفضله وعلمه وذكائه وفهمه وسرعة حفظه ، اشتغل بالدرس والإفادة وله خمس عشرة سنة فدرس وأفاد حتى صار في الهند العلم المفرد وتخرج عليه كثير من العلماء والمشايخ كالشيخ عبد القادر الدهلوي ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والمفتي إلهي بخش الكاندهلوي وغيرهم ، له مصنفات منها تفسير القرآن وقد ضاع معظمها في ثورة الهند ، نزهة الخواطر:(٧/ ٢٦٨) ، رجال الفكر والدعوة ، الجزء الرابع ، للعلامة الشيخ الندوي ـ حفظه الله تعالى ـ.

(٢) هو العلامة الشيخ شبير أحمد بن فضل الرحمن العثماني (ولد في سنة ١٢٠٥ هـ) ، قرأ في ديوبند ، أخذ عن العلامة محمود الحسن الديوبندي وبرز في الحديث والتفسير والكلام ودرس في ديوبند ، ثم ارتحل إلى ذابهيل مع العلامة أنور شاه الكشميري وبعد مدة عاد إليها وأقام سبع سنين عاكفاً على الدرس والإفادة ثم تركها ، سافر عدة مرات إلى حيدر آباد ، حتى ولاه النظام إدارة دار العلوم العربية ولكنه غادر إلى باكستان ولم تمكنه العودة إلى الهند ، إنه رحل إلى الحجاز للحج والزيارة ١٩١١ م ، وألقى محاضراته بالعربية فأُعجب بها العلماء الوافدون من أنحاء العالم الإسلامي. =

سنة (١٣٦٥ هـ) لشرح صحيح مسلم وكان جديراً بذلك، قديراً عليه، لرسوخه في العلوم الشرعية وتضلّعه منها، مع صحة العقيدة وسلامة الفكر وما يحتاج إليه الجيل الإسلامي الجديد، والعصر الحديث من تحقيقات وإقناعات علمية عقلية كلامية، وما يقتضيه الزمان من بسط في بعض المواضع وإيجاز في بعضها وما أثير في هذا العهد من بحوث وتساؤلات وتشكيكات لتأثير الحضارة الغربية، والنظم التعليمية الأجنبية مع بيان أسرار الشريعة مستفيداً في ذلك من كتب الإمام ولي الله الدهلوي[1]، والإمام

= له مصنفات عديدة أشهرها «فتح الملهم بشرح صحيح مسلم» ولم يتم فأكمله الشيخ محمد تقي العثماني، و«تفسير القرآن الكريم» و«فضل الباري بشرح صحيح البخاري» في الأوردية جمعه ورتبه الشيخ القاضي عبد الرحمن، وغيرها من المصنفات، توفي في باكستان سنة ١٣٦٩ هـ.

(١) هو الإمام حكيم الإسلام قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي مسند الهند وعالم أسرار الشريعة (١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ) قرأ سائر العلوم على والده، وكان يختلف إلى المحدث الشيخ محمد أفضل السيالكوتي واستفاد منه في الحديث، سافر إلى الحرمين الشريفين، وأقام بهما عامين وصحب علماءها وأخذ الحديث عن الشيخ أبي طاهر الكردي، ورجع إلى الهند، ونشر الحديث فيها، وقد ألهمه الله تعالى من العلوم والأسرار وجمع فيه من العلوم ما يندر نظيره في تاريخ=

الغزالي[١] ، والشيخ محيي الدين[٢] ابن عربي ، مع استدلال للمذهب الحنفي في القضايا الشرعية ، وإيضاحه مع البحث المقارن والدراسة المقارنة ، ونقل ما انتقل من جيل إلى جيل من الدارسين لكتب الحديث والمدرسين لها من تحقيقات أساتذة هذه المدرسة الحديثية الحنفية ، وما جاء منها في كتاب مطمور أو مغمور ، لم يكن بمتناول طلبة هذا الفن مع إعطاء مذاهب غير

= الأمم والديانات ، يقول عنه شيخه الكردي : «يسند عني اللفظ وكنت أصحح منه المعنى» من أشهر مصنفاته : «حجة الله البالغة» في علوم أسرار الشريعة ، (نزهة الخواطر : ٦/ ٢٣٩٧ ، رجال الفكر والدعوة : ٤/ للعلامة الشيخ السيد أبي الحسن الندوي) .

(١) هو الإمام حجة الإسلام زين العابدين أبو حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) أخذ عن إمام الحرمين حتى برع في زمن أستاذه ، ثم ولي التدريس بمدرسة «النظامية» ببغداد ، وهنا بعد صيته وارتفعت منزلته فترك جميع ما كان عليه وسلك طريق الزهد وبلغ الكمال ، إنه دخل في أحشاء الفلسفة ، ثم خرج منها وصنف كتابه : «تهافت الفلاسفة» للرد عليها وهي من أكبر مآثره ، وله غير ذلك من مصنفات نافعة أشهرها «إحياء علوم الدين» .

(٢) العلامة محيي الدين أبو بكر محمد بن علي الحاتمي المرسي ابن العربي سمع من ابن بشكوال وابن رستم وابن صاف وغيرهم ، وكان ذكياً كثير العلم ، ثم تزهَّد وتفرَّد وتعبَّد وتوحَّد ، وسافر وتجرَّد وعلَّق شيئاً كثيراً في تصوف أهل الوحدة ، ومن أشهر مصنفاته : «فصوص الحكم» وفيه ما فيه ، توفي سنة ثمانٍ وثلاثين وستمئة ، سير أعلام النبلاء : (٢٣/ ٤٨) .

المذهب الحنفي حقها من العرض الصحيح والبحث المنصف .

لكن إرادة الله غالبة ، فلم يمهله الأجل لإكمال هذا الشرح المفيد ذي القيمة العلمية الفنية الكلامية ـ وكل شيء عنده بأجل مسمىً ـ فقد وافاه الأجل سنة ١٢٦٩ هـ في كراتشي باكستان ، وقد أكمل الجزء الثالث من الشرح وكان حامل لواء الإسلام والملقب بحق بشيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ وجزاه على خدمة الإسلام والمسلمين وتقنين البلاد بالقانون الإسلامي ، مدى جهده واستعداد المسؤولين وإجابتهم ذلك .

وقد قدّر الله تبارك وتعالى وهو المعين دائماً والموفق لإكمال سلاسل الخير ، وما بدأ به مخلص من خدمة للشريعة الإلهية والكلام النبوي الشريف وله أمثلة على مدى القرون والأنواع كما يدل على ذلك التاريخ العلمي والديني أن يكون إكمال هذه السلسلة المباركة على يدِ من ينوب عن بادئ هذه السلسلة علماً ومذهباً ووطناً ونسباً ، ويمتاز ـ مع إجلال المؤلف الأول والاعتراف بفضله وجدارته ـ بمزايا تكون نتيجة تقدم الزمان وسنوح الفرص للدراسات الحديثية والقضايا العصرية والاطلاع على تساؤلات علمية وتشريعية ومايحدث ـ كنتيجة للدراسات المقارنة وبحوث المستشرقين وكتاباتهم ـ من شبهات وتساؤلات ـ وكان ذلك بنهوض صاحب الفضيلة والسعادة العالم الراسخ الضليع والحقوقي الكبير فضيلة

الشيخ محمد تقي العثماني[١] ـ بارك الله في حياته ونفع به ـ قاضي التمييز الشرعي في المحكمة العليا في باكستان ، فقد مارس التدريس وأخذ العلوم من منابعها الأصيلة ، ورجالها الراسخين في العلم والدين فبدأ بهذا العمل الجليل ووفقه الله تعالى لإكمال هذه السلسلة في سبعة مجلدات كبار ، تسمى : بتكملة «فتح الملهم» ونشرتها مكتبة دار العلم كراتشي ـ باكستان .

وكانت هذه الخاتمة للسلسلة المباركة ، التي بدأ بها العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني ـ رحمه الله تعالى ـ ملأً لفراغ وقضاءً لحاجة علمية ، دينية ، فنية ، ومواجهة لبحوث وتساؤلات وشبهات ، يقتضيها تغير الزمان وتطور الحضارة والفكرة ، والبحوث المقارنة ، فكان لا بد من مواجهة هذه التساؤلات والشبهات ، الخفية والعلانية وحلّها في ضوء الشريعة الإسلامية

(١) العالم الضليع الفقيه المحدث محمد تقي بن العلامة المفتي محمد شفيع العثماني ، ولد في خامس شوال سنة١٣٦٢ من الهجرة ، ودرس في دار العلوم كراتشي عن أساتذتها واستفاد بوالده العظيم وبرع في الفقه والحديث ، ثم التحق بجامعة كراتشي ، ثم بجامعة بنجاب ، وحصل الماجستير بوجه ممتاز ، ثم اشتغل بالتدريس بدار العلوم وفاق بدقة في الشعور والاتزان في الفكر والجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، وهو الآن نائب رئيس دار العلوم كراتشي ، وقاضي التمييز الشرعي بالمحكمة العليا بباكستان ، له مصنفات وبحوث مفيدة ، بارك الله في حياته ونفع الله به الإسلام والمسلمين .

والحديث النبوي الشريف من قضايا وأحكام في ضوء العلم الراسخ الواسع ، والاطلاع على التشريعات الأجنبية ، والعصرية ، والعلوم الغربية وبعض اللغات الأجنبية ، فكان فضيلة الأستاذ محمد تقي العثماني بحكم تضلّعه من العلوم الشرعية ، وتناولها وتلقيها من علماء راسخين متضلعين كوالده العلامة الكبير والعالم الضليع الفقيه المحدث والمدرس المحنّك الموثوق به في دينه وعلمه واتجاهه ، العلامة المفتي محمد شفيع العثماني الديوبندي[1] وغيره من العلماء الراسخين ، والأساتذة البارعين ، جديراً بذلك ، قديراً عليه ، فتناول عدداً كبيراً من القضايا ، وما جاء في الحديث النبوي واحتوى عليه صحيح مسلم ، كغيره من كتب الحديث والصحاح والمسانيد من أحكام وقضايا ، قد تُثار حولها بحوث وتساؤلات بتأثير الثقافة الحديثة ، والحضارة الغربية ، والتشريعات الجديدة ،

---

(١) العلامة المفتي محمد شفيع بن محمد ياسين الديوبندي (١٣١٤ ـ ١٣٩٦ هـ) أحد العلماء المبرزين في الفقه والحديث والتفسير ، تخرج بجامعة ديوبند الإسلامية ، ثم التحق بها ودرس وأفاد ، ثم هاجر إلى باكستان سنة ثمانٍ وستين وثلاثمئة وألف ، وأسس مركزاً علمياً في كراتشي ، وعكف على الدرس والإفادة والتصنيف والتأليف واستفاد منه كثير من العلماء .
كان من نوادر العصر في الاتزان في الفكر والتعمق في الفقه واسع الاطلاع جيد القريحة وكانت له مشاركة في الشعر ، لقب بالمفتي الأعظم بباكستان ، يبلغ تأليفه إلى مئتين تقريباً ، أشهرها «معارف القرآن» في ثماني مجلدات كبار ، و«جواهر الفقه» في خمس مجلدات وغيرهما .

بالبحث العلمي والمقارن ، وأزال ما أثير حولها من شبهات ، وما استغلت لمنافع شخصية أو جماعية أو سياسية ، ويكفي لذلك على سبيل المثال ما جاء في المجلد الثالث ، الذي هو أمام الكاتب من بحث في الجهاد والإمارة والصيد والذبائح والأطعمة والأشربة ، وتقاس على ذلك بقية المجلدات .

فجاء هذا العمل العلمي والتأليفي في أوانه وفي مكانه ، وحالفه التوفيق الإلهي ، نسأل الله أن يتقبَّله وينفع به ويجزي صاحبه أحسن الجزاء ، بارك الله في حياته ونفعه ونفع به ، ويفتق به قريحة المعلمين والمتعلمين والمقننين والمشرعين ، ويوفقهم للنهوض لمثل هذه الأعمال المثمرة المقبولة عند الله ، وعند المنصفين والراسخين في العلم والشاهدين بالفضل .



نظـرات فـي سنـن أبـي داود وشـروحــه

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد! فيسعد كاتب هذه السطور أن يقدم لكتاب «بذل المجهود في حل أبي داود» للعلامة المحدث الكبير والمربي الجليل مولانا خليل أحمد السهارنفوري ـ رحمة الله عليه ـ[١] وقد سعد

(١) هو العلامة المحدث خليل أحمد بن مجيد علي الأنصاري الحنفي السهارنفوري (١٢٦٩ ـ ١٣٤٦ هـ) ولد في نانوته وقرأ على خاله الشيخ يعقوب والشيخ محمد مظهر النانوتوي وعلى غيرهما في ديوبند و(مظاهر العلوم) حتى برز في الحديث والفقه وتصدر للتدريس في (مظاهر العلوم) ثم سافر إلى بعض بلاد الهند للدرس والإفادة حتى اختير أستاذاً في ديوبند ثم تولى رئاسة التدريس في مظاهر العلوم فانتقل إليها ، وبعد مدة تولى نظارتها ونالت به المدرسة القبول العظيم .
كان من أخص تلامذة العلامة رشيد أحمد الكَنكَوهي وحصلت له الإجازة عن المشايخ والمسندين الكبار كالشيخ عبد الغني المجددي والعارف الكبير الشيخ إمداد الله والشيخ أحمد دحلان والشيخ عبد القيوم البرهانوي=

الكاتب ووفق لتقديم عدة كتب قيمة ومؤلفات عظيمة لتلميذه الأبر الأكبر ، شيخنا العلامة محمد زكريا بن يحيى الكاندهلوي السهانفوري[١] كـ «مقدمة أوجز المسالك» و«مقدمة لامع الدراري» و«جزء حجة الوداع وعمرات النبي ﷺ» والأبواب والتراجم للبخاري .

وكاتب هذه السطور يشهد الله على أن هذه الكتابات لم تخدعه عن نفسه وقد كان يتقدم إليها في كل مرة متهيِّباً خاشعاً أمام جلال الموضوع ، ومكانة الكتاب العلمية ، ومنزلة المؤلف الدينية وعلو كعبه واختصاصه في علم الحديث مؤمناً بضآلة قدر نفسه وقلة بضاعته وبأنه متطفِّل على مائدة هذا الفن الشريف ، يعتبر ـ عَلِمَ الله ـ أن إقدامه إلى هذا التقديم جسارة تكاد تكون وقاحة وإساءة

= وغيرهم .

عني بالحديث عناية عظيمة تدريساً وتأليفاً ومطالعةً وتحقيقاً ، وكتابه «بذل المجهود» أتم مظهر لعلومه ومن أكبر مآثره العلمية وله مصنفات غيره وفي آخر عمره هاجر إلى الحرمين الشريفين وانقطع إلى جوار رسول الله ﷺ حتى أجاب داعي الله .

تخرج على يده كبار من المشايخ والعلماء كالداعية الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ـ منشىء جماعة التبليغ ـ والعلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوي والشيخ عاشق إلهي الميرتهي وغيرهم .

(١) توفي إلى رحمة الله في غرة شعبان سنة ١٤٠٢ هـ وقد ترجم له العلامة الندوي في كتابه شخصيات وكتب وأفرد ترجمته في كتاب له في الأردوية .

أدب وقلة حياء ، وبأن في القطر الهندي وحده ، فضلاً عن شبه القارة الهندية ، فضلاً عن العالم الإسلامي ، من هو أجدر ، وأقدر وأولى بهذه التقديمات والتعريف بالتأليف والمؤلف .

ولا يستطيع الكاتب أن يعلل هذا التكريم المتكرر إلا بحكمة إلهية خفية وأسلوب من أساليب التربية التي خص الله بها كبار المربين وحذاق المعلمين ، وأن لهم في ذلك مرامي بعيدة ومقاصد دقيقة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر : ٣١] ولعل ذلك لإثارة كوامن الشوق وتشحيذ العزم الفاتر ، والهمَّة الكليلة في دراسة هذا الفن الشريف ، وإعادة الخيط النوراني الذي يربط القلوب بهذا العلم ، والذي ضعف وكاد ينقطع .

وعلى كل فالكاتب يعتقد كل ذلك من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى عليه ، التي لا يستوفي حق شكرها :

فلو أن لي في كل منبت شعر لساناً لما استوفيت واجب حمده

وكتاب «بذل المجهود» هو واسطة العقد بين هذه الكتب التي أمرت بالتقديم لها ، واهتمام شيخنا العلامة محمد زكريا بنشره في الحروف العربية ووصوله إلى أيدي علماء الحديث والمشتغلين بتدريسه وتحقيقه ، وانتشاره في الأوساط العلمية والمدارس الدينية ، وحلوله المحل اللائق به من بين شروح الحديث التي ألفت في العصور الأخيرة أعظم وأكثر ، إذ هو ليس مجرد تأليف لشيخه ـ الذي أحبه واقترنت حياته العلمية بحياته وليست إلا ظلاً ممدوداً

لهذه الشجرة الطيبة المباركة ـ بل هو فلذة كبده وقطعة نفسه ، وأحب أعماله إليه كما سيقرأ القارىء في السطور الآتية؛ فأصبح خروج هذا الكتاب في الثوب القشيب والمظهر الجديد أعز امانيه وأكبر آماله يتلذذ بالحديث عنه ويتسلى بالتفكير فيه ، وقد طابت له الحياة وهانت عليه المحن والخطوب في سبيل نشر هذا الأثر العلمي العظيم وتذكار شيخه الأثير الحبيب ، وانتظار خروجه واكتماله ، ومن دواعي الغبطة والسرور لكاتب هذه السطور أن يكون له نصيب في هذا العمل ، وأن يكون عاملاً صغيراً في تحقيق هذه الأمنية العزيزة وإظهار هذه المأثرة الخالدة.

وكلمة وجيزة عن مكانة سنن أبي داود[1] ومنزلته بين

---

(١) هو الإمام الثبت سيد الحفاظ سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني (٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ) سمع أحمد بن حنبل وأبا الوليد الطيالسي ، وأحمد بن يونس وسليمان بن حرب وخلقاً كثيراً بالحجاز والشام ومصر ، والعراق ، والجزيرة ، والثغر ، وخراسان ، وحدث عنه الإمام الترمذي والإمام النسائي ، وروى عنه شعبة ، وأبو سعيد بن الأعرابي ، وأبو علي اللؤلؤي ، وأبو بكر بن داسة ، وأبو سالم محمد بن سعيد الجلودي ، وأبو عمر أحمد بن علي ، وكتب عنه شيخه أحمد بن حنبل حديثاً واستحسن كتابه ، قال محمد بن إسحاق الصاغاني : «ليّن لأبي داود الحديث كما لُيّن لداود الحديد» وقال الذهبي كان رأساً في الحديث رأساً في الفقه ، ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع حتى إنه كان يشبه بالإمام أحمد بن حنبل الشيباني له مصنفات أشهرها سننه في مجلدين ضخمين يحتوي على أربعة آلاف وثمانمئة حديث ، =

دواوين السنة ومجاميع الحديث ، وإن كان هذا الموضوع قد استوفي في كتب أصول الحديث ، ومقدمات علم الحديث ، وتاريخ تدوين السنة ولم يترك الأول للآخر شيئاً ، ولا يجاوز عمل كاتب مثلي إعادة ما قيل وإجمال ما فصِّل ، ووقفة قصيرة عند شروح هذا الكتاب وتعليقاته ، ونظرة إجمالية في هذا الشرح ، ومكانته من بين الشروح والثغرة التي يسدها ، ولماذا احتاج المؤلف إلى وضعه ، ومدى ارتباط المؤلف بهذا الكتاب وتفانيه فيه وتعلقه به ومدى نجاحه ونبوغه ، فلكل ذلك قصة ممتعة مفيدة ، فيها عبرة لمن اعتبر ، ودروس مفيدة لتلاميذ المدارس النجباء ، ورواد العلم الأذكياء ، وأولي الهمم من المؤلفين والعلماء ﴿ **فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

مكانة سنن أبي داود بين دواوين السنة ومجاميع الحديث :

أما سنن أبي داود فهو من كتب الحديث التي تلقتها الأمة بالقبول وتلقاها علماء الصناعة وأئمة الفن بالاعتناء التام ، وعليه المعوَّل والاعتماد قديماً وحديثاً وهو ثالث الأركان أو الرابع في قول بعض المحقِّقين التي قام عليها بناء السنة[١] .

= انتخبه من خمسمئة ألف حديث ، ومنها مراسيله ، (تذكرة الحفاظ: ج/ ٢ ، ص/ ٥٩١).

(١) قال السيوطي في التدريب ، يقول الذهبي: انحطت رتبة جامع الترمذي عن سنن أبي داود والنسائي لإخراجه حديث المصلوب والكلبي =

ونبدأ بكلام الإمام أبي داود نفسه في وصف كتابه وذكر خصائصه فهو الثقة الصدوق فيما يقول ولا يصف كتاباً ولا يعرف غوامضه مثل مؤلفه ، قال رحمه الله تعالى في رسالة أرسلها إلى أهل مكة في صفة كتابه :

«وهو كتاب لا يرد عليك سنة عن النبي ﷺ بإسناد صالح إلا وهو فيه إلا أن يكون كلام استخرج من الحديث ولا يكاد يكون هذا ولا أعلم شيئاً بعد القرآن ألزم للناس أن يتعلموه من هذا الكتاب ولا يضر رجلاً أن لا يكتب من بعد ما يكتب هذا الكتاب شيئاً ، وإذا نظر فيه وتدبره وتفهمه علم إذاً مقداره»[١].

وقال أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن الأعرابي[٢]

= وغيرهما ، ووضع النواوي سنن أبي داود بعد الصحيحين في التقريب ، وعلى هذا المنوال ذكره الإمام ولي الله الدهلوي وابنه المحدث عبد العزيز الدهلوي ، وكلام ابن سيد الناس في شأن أبي داود يشير إلى أنه يجعله في رتبة مسلم إذ قال : «فهذا ألزم بما ألزم به أبو داود» ومنهم من يعده رابع الكتب الستة ولكن أكثر العلماء يعده ثالث الستة المشهورة .

(١) مقتبس من رسالة أبي داود السجستاني في وصف تأويله لكتاب السنن (ص/ ٦ـ٧) ، رواية أبي الحسين بن جميع عن محمد بن عبد العزيز الهاشمي عنه ، طبعت في مطبعة الأنوار بالقاهرة سنة ١٣٦٩ هـ بتحقيق العلامة محمد زاهد الكوثري ـ رحمه الله ـ .

(٢) هو الإمام الحافظ المحدث الزاهد شيخ الحرم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر البصري الصوفي (٢٤٦ ـ ٣٤٠ هـ) سمع عن الإمام=

(وهوأحد كبار تلاميذ الإمام أبي داود وصاحب النسخة المشهورة للسنن)[١] لو أن رجلا لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله ثم هذا الكتاب (وأشار إلى نسخة السنن وهي بين يديه) لم يحتج معهما إلى شيء من العلم بتة[٢].

وقال أبو سليمان الخطابي صاحب معالم السنن[٣]: وعلموا

= أبي داود وطبقته وروى عنه ابن جهضم وابن منده وغيرهما، كان ثقة ثبتا، عارفاً، عابداً، ربانياً، كبير القدر، بعيد الصيت، قد صحب الجنيد البغدادي وأبا أحمد القلانسي، من تصانيفه، كتاب طبقات النسّاك، وصنّف تاريخاً للبصرة كبيراً (تذكرة الحفاظ: ٣/ ٨٥٢)، (شذرات الذهب: ٢/ ٣٥٤).

(١) وهي أنقص النسخ الثلاثة حتى قيل إنه ليس فيه كتاب الفتن والملاحم والحروب وغيرها.

(٢) ذكره الخطابي في مقدمته سماعاً من ابن العربي (معالم السنن: ص/ ٨).

(٣) هو الإمام المحدث الفقيه الأديب العلامة الرحال أبو سليمان حمد بن محمد إبراهيم الخطابي البستي ولد سنة ٣٨٠هـ، سمع أبا سعيد بن الأعرابي وأبا بكر بن داسة وطبقتهما وروى عنه الحاكم النيسابوري وغيره كثير من الناس.

كان ثقة متثبتا من أوعية العلم قد أخذ اللغة عن أبي عمرو الزاهد، والفقه عن أبي علي بن أبي هريرة والقفال، له التصانيف البديعة. أشهرها «معالم السنن» في شرح أبي داود، و«أعلام السنن» في شرح البخاري وكتاب «إصلاح غلط المحدثين» توفي ببست، (تذكرة الحفاظ: ٣/ ١٠١٨)، (وفيات الأعيان: ١/ ٤٥٣)، (شذرات الذهب: ٣/ ١٢٧).

رحمكم الله أن كتاب السنن لأبي داود كتاب شريف لم يصنَّف في علم الدين كتاب مثله وقد رزق القبول من الناس كافَّة فصار حكماً بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم فكلٌّ فيه ورد ومنه شرب ، وعليه معوَّل أهل العراق، وأهل مصر ، وبلاد المغرب ، وكثير من مدن أقطاع الأرض ، فأما أهل خراسان فقد أولع أكثرهم بكتاب محمد بن إسماعيل(١) ومسلم بن الحجاج(٢) ومن نحا نحوهما في جمع الصحيح على شرطهما في السبك والانتقاد ، إلا أن كتاب أبي داود أحسن رصفاً وأكثر فقهاً وكتاب أبي عيسى(٣) أيضاً كتاب حسن والله يغفر

(١) أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري رحمه الله (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ) قد سلف ذكره .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) هو الإمام الحافظ علم المحدثين أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي الضرير (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ) قام برحلة إلى خراسان والعراق والحجاز وسمع قتيبة بن سعيد وسويد بن نصر وعلي بن حجر وغيرهم ، وتفقه في الحديث بأبي عبد الله البخاري ، حدث عنه مكحول ، وأبو العباس المحبوبي والهيثم بن كليب الشاشي وخلق سواهم وقد سمع منه أبو عبد الله البخاري ، قال ابن حبان : كان أبو عيسى ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر ، وقال أبو سعيد الإدريسي : كان يضرب به المثل في الحفظ ، وقال الحاكم : سمعت عمر بن علك يقول : مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى في العلم والزهد والورع ، بكى حتى عمي وبقي ضريراً سنين ، له مصنفات أشهرها جامعه في =

لجماعتهم ، ويحسن على جميل النية فيما سعوا له مثوبتهم برحمته ، إلى أن قال: «وكان تصنيف علماء الحديث قبل زمان أبي داود الجوامع والمسانيد ونحوهما فتجمع تلك الكتب إلى ما فيها من السنن والأحكام أخباراً وقصصاً ومواعظ وآداباً ، فأما السنن المحضة فلم يقصد واحد منهم جمعها واستيفاءها ولم يقدر على تخليصها واختصار مواضيعها من أثناء تلك الأحاديث الطويلة ومن أدلة سياقها على حسب ما اتفق لأبي داود ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر محل العجب فضربت فيه أكباد الإبل ودامت إليه الرحل»[1].

وقال شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي[2] شارح صحيح مسلم والمؤلفات الكثيرة الشهيرة ، في

= مجلدين ضخمين ، يقول عنه الترمذي: من كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي يتكلم ، وله كتاب العلل والشمائل وغيرهما (تذكرة الحفاظ: ٢/ ٦٣٣).

(١) معالم السنن (ص/ ٦ـ٧) ، المطبعة العلمية بحلب.

(٢) هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النواوي الحزامي الحوراني الشافعي (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ) قدم دمشق وقرأ بعض الكتب على شيخه الكمال ثم حج مع أبيه وأقام بالمدينة وأخذ عن شيوخها ، فكان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً أخذ الحديث عن أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادي وطبقته ، ولازم الاشتغال والتصنيف ونشر العلم والعبادة.

كان أوحد زمانه في العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش إماماً=

قطعة كتبها في شرح سنن أبي داود : وينبغي للمشتغل بالفقه وغيره الاعتبار بسنن أبي داود وبمعرفته التامة فإن معظم أحاديث الأحكام التي يحتج بها فيه مع سهولة تناوله وتلخيص أحاديثه وبراعة مصنفه واعتنائه بتهذيبه(١) .

وقال العلامة الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية(٢) صاحب

= بارعاً حافظاً للحديث وفنونه رأساً في معرفة المذهب ، صنف التصانيف الجمة، أشهرها شرحه لصحيح مسلم، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، والأربعين ، والتقريب ، والأذكار وغيرها (تذكرة الحفاظ : ٤/ ١٤٧٠) ، (شذرات الذهب: ٥/ ٣٥٤).

(١) العبارة منقولة من «الحطة في ذكر الصحاح الستة» للأمير العلامة صديق حسن خان القنوجي: ص/١٠٦ ، المطبعة النظامية ، كانفور ، طبع ١٢٨٣ هـ.

(٢) هوالإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) أحد كبار العلماء والدعاة في التاريخ الإسلامي ، مولده ووفاته في دمشق ، سمع من الشهاب النابلسي وغيره وتفقه في المذهب وبرع وأفتى ، وأخذ عن شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني ، وتفنن في علوم الإسلام وهو الذي هذب كتب ابن تيمية ، ونشر علمه ، وسجن معه في قلعة دمشق وأهين وعذب ، يقول ابن رجب: كان عارفاً بالتفسير وبأصول الدين والحديث ومعانيه والفقه وأصوله والعربية والكلام ، لا يجارى في هذه العلوم وكان ذا عبادة وتأله ولهج بالذكر والإنابة والافتقار إلى الله لم أشاهد مثله في ذلك ولا رأيت أوسع منه علماً ، له تصانيف كثيرة وغزيرة ، منها ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، (شذرات الذهب: ٦/ ١٦٨) ، (الأعلام: =

زاد المعاد ، والمؤلفات المقبولة في شرحه[١] لاختصار المنذري[٢] (لسنن أبي داود) «ولما كان كتاب السنن لأبي داود سليمان بن الأشعث ـ رحمه الله ـ من الإسلام بالموضع الذي خصه به ، بحيث صار حكماً بين أهل الإسلام ، وفصلاً في موارد النزاع والخصام فإليه يتحاكم المنصفون ، وبحكمه يرضى المحققون ، فإنه جمع شمل أحاديث الأحكام ، ورتبها أحسن ترتيب ، ونظمها أحسن نظام مع انتقائها أحسن الانتقاء واطراحه منها أحاديث المحرومين والضعفاء».

= ٦/ ٢٨٠).

(١) ذكر في شرحه أن الحافظ زكي المنذري قد أحسن في اختصاره فهذبته نحو ما هذب به الأصل وزدت عليه من الكلام على علل سكت عنها .

(٢) هو الإمام العلامة الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي أبو محمد زكي الدين المنذري (٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ) أصله من الشام سمع الحديث بمكة ودمشق وحران والإسكندرية وتولى مشيخه دار الحديث الكاملية بالقاهرة وانقطع بها نحو عشرين سنة عاكفاً على التصنيف والدرس والإفادة وبه تخرج الدمياطي وابن دقيق العيد وغيرهما ، كان عديم النظير في عصره في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه ، قال الذهبي : «لم يكن في زمانه أحفظ منه» له تصانيف منها مختصر صحيح مسلم ومختصر سنن أبي داود ، برواية اللؤلؤي سماه المجتبى ، وألف السيوطي عليه كتاباً سماه : «زهر الربى على المجتبى» وللمنذري أيضاً عليه بعض التعليقات (البداية والنهاية : ١٣/ ٢١٢) ، (طبقات الشافعية : ٥/ ١٠٨) ، (شذرات الذهب : ٥/ ٢٧٧).

وفيما نقلناه بلاغ ومقنع للدلالة على مكانة الكتاب وأهميته ، وكانت نتيجته الطبيعية ومقتضى إجلال العلماء له واحتياج الفقهاء والمحدثين إليه أن يكثر الاهتمام بشرحه وخدمته ، والتعليق عليه ، فتناوله بالشرح كبار علماء الأمة وأئمة علم الحديث في كل عصر ومصر .



عنايـة العلمـاء بـه وشـروحـه وتعليقاتـه

ومن أقدم شروحه وأشهرها ، وأغزرها مادة ، وأكثرها فوائد وأصولاً ونكتاً شرح معالم السنن لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي[١] ولا يعزبن عن البال أن الخطابي ـ رحمه الله تعالى ـ لم يشرح جميع الأحاديث بل يأتي إلى الباب الذي تعددت فيه الروايات ، فإذا كان المآل فيها واحداً شرح منها حديثاً واحداً ، وكأنه بذلك شرح جميع الباب ، وإلا شرح أكثر من ذلك على حسب ما يتراءى له وإلى ذلك الإشارة بقوله من باب كذا[٢] .

إلا أن الكتاب مجمع على فضله واحتوائه على فوائد كثيرة تنير السبيل للمستفيدين ، وتنشىء فيهم ملكة الاستنباط وفقه الحديث ،

(١) سلف ذكره وشرحه على سنن أبي داود برواية ابن داسة ولخص هذا الشرح الحافظ شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن إبراهيم المقدسي (م ٧٦٥ هـ)وسماه «عجالة العالم من كتاب المعالم» .

(٢) مقتبس من مقدمة الشيخ الراغب الطباخ على معالم السنن للخطابي طبع حلب .

وقد جاءت في ثنايا الكتاب ثروة ذات قيمة من مقاصد الشريعة وأسرارها كما نوه بذلك شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله[١] الدهلوي في مقدمة «حجة الله البالغة»[٢].

وشرحه الشيخ قطب الدين أبو بكر بن أحمد بن دعين اليمني الشافعي (م سنة ٦٥٢ هـ)[٣] في أربعة مجلدات كبار.

وقد تناوله بالشرح شيخ الإسلام محيي الدين النواوي[٤] (م سنة ٦٧٦ هـ) إلا أن هذا الشرح لم يتم ولو تم لكانت له مكانة مرموقة لاقتدار صاحبه على الشرح والإيضاح ورسوخه في علوم الحديث وسلامة ذهنه.

وشرحه الحافظ علاء الدين المغلطائي ابن القليج[٥] ولم

(١) مضت ترجمته.

(٢) في مكتبة دار العلوم ديوبند مقدمة للشيخ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي الأصبهاني، كتبها بطلب من جماعة للفقهاء حين إملائه لمعالم السنن في سنة ٥٤٦ هـ للتعريف بصاحب السنن الإمام أبي داود وبشارحه أبي سليمان الخطابي يقول في هذه المقدمة، وقد أردت أن أقدم هاهنا أيضاً فصلاً في التنبيه على جلالة أبي داود وما صنفه، وفضل أبي سليمان وشرحه وقد جاءت هذه المقدمة في ٢٢ صفحة من القطع الكبير وهي خطية لم تطبع بعد (مخطوطات دار العلوم: ص/ ٩٥).

(٣) لم نعثر على ترجمته.

(٤) سلف ذكره.

(٥) هو الإمام العلامة الحافظ المحدث علاء الدين أبو عبد الله بن قليج بن =

يكمله ، وهو كتاب عظيم كثير الفوائد .

وشرحه شهاب الدين أبو محمد أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال المقدسي[١] سماه «امتحاء السنن واقتفاء السنن» .

وشرحه الشيخ سراج الدين عمر بن علي بن الملقن الشافعي[٢] .

= عبد الله البكجري الحنفي ، ولد بعد التسعين وستمئة ، كما هو المشهور ، كان أبوه في صباه يرسله ليرمي بالنشاب فيخالفه ويذهب إلى دروس أهل العلم حتى صار له مشاركة جيدة في فنون من العلم ، سمع عن ابن دقيق العيد والعراقي والدمياطي وغيرهم وتخرج على ابن سيد الناس وبعد وفاته ولي بالتدريس بالظاهرية .
كان كثير المطالعة والدأب والكتابة ، له مصنفات كثيرة مفيدة تبلغ إلى مئة كتاب تقريباً ، مات في شعبان ٧٦٢ هـ (ذيل تذكرة الحفاظ لأبي المحاسن : ص/ ١٣٣) (وللسيوطي : ص/ ٣٦٥) (شذرات الذهب : ٣/ ١٩٧) .

(١) هو الإمام المحدث الحافظ شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هلال المقدسي (٧١٤ ـ ٧٦٥ هـ) سمع من أصحاب ابن عبد الدائم وابن علاق والنجيب وطبقتهم ، وعني بهذا الشأن فجمع وضبط وبرع ، رحل وأفاد ، وصنف ودرس بعد العلائي بالتنكزية ، سمع فيه جماعة من الفضلاء ، يقول الذهبي عنه : هو الإمام المحدث طالب مفيد ، سريع القراءة ، رحل إلى القدس ومصر ودمشق وتوفي في بيت المقدس ، (الدرر الكامنة : ١/ ٢٤٢) (ذيل تذكرة الحفاظ لأبي المحاسن الدمشقي : ص/ ١٤٨) .

(٢) هو العلامة المحدث الفقيه سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد=

وشرحه الشيخ العلامة ولي الدين أبو زرعة أحمد بن الحافظ أبي الفضل زين الدين العراقي[١] قال السيوطي[٢] هو

= الأنصاري المصري الشافعي المعروف بابن الملقن (٧٢٣ ـ ٨٠٤ هـ) ولد في القاهرة ونشأ في كفالة زوج أمه وقد توفي أبوه ، أخذ عن التقي السبكي وابن سيد الناس ومغلطائي وغيرهم وأجاز له جماعة كالمزي وغيره اشتغل في كل فن حتى قرأ في كل مذهب كتاباً ، قال ابن حجر : كان موسعاً عليه في الدنيا مشهوراً بكثرة التصانيف حتى يقال إنها بلغت ثلاثمئة تقريباً ما بين صغير وكبير منها شرحه على صحيح البخاري وشرح زوائد السنن ، لأبي داود على الصحيحين في مجلدين ، (البدر الطالع : ١/٥٠٨) (شذرات الذهب : ٧/ ٤٤) .

(١) هو العلامة المحدث الفقيه الأصولي ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين العراقي الشافعي (٧٦٣ ـ ٨٢٦ هـ) قرأ على أساتذة بلده ثم رحل أبوه به إلى الشام فأحضر عند جمع من العلماء ثم رجع أبوه فطلب العلم بنفسه وطاف على الشيوخ وكتب الطباق وفهم الفن ، أخذ عن البلقيني وابن الملقن حتى برز في الحديث والفقه والعربية ولما مات أبوه تقرر في وظائفه فدرس ثم ولي القضاء الأكبر ثم صرف عنه ، كان من خير أهل عصره بشاشة وصلابة في الحكم وقياماً في الحق وطلاقة وجه وحسن خلق ، له مصنفات في الحديث والفقه ، شرح سنن أبي داود برواية اللؤلؤي (شذرات الذهب : ٧/ ١٧٣) (الضوء اللامع : ١/ ٣٣٦) (ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي : ص/ ٣٧٥) .

(٢) هو المحقق الإمام الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري السيوطي الشافعي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) أحضره والده في صباه مجلس الحافظ ابن حجر ، أخذ عن الشمس المرزباني والعلم =

شرح مبسوط جداً كتب فيه من أوله إلى سجود السهو في سبع مجلدات[١] ولو كمل لجاء أكثر من أربعين مجلداً.

وشرحه الحافظ شهاب بن رسلان الرملي الشافعي في أحد عشر مجلداً[٢] وقد رأى الشيخ العلامة حسين بن محسن الأنصاري[٣]

= البلقيني وأجيز بالإفتاء والتدريس، ولما بلغ أربعين سنة أخذ في التجرد والعبادة، والانقطاع إلى الله سبحانه، وبدأ التأليف وترك الإفتاء والتدريس، وأقام في روضة المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات، مؤلفاته كثيرة نافعة تبلغ إلى خمسمئة مؤلف، كان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، وأخبر هو عن نفسه أنه يحفظ مئتي ألف حديث، (شذرات الذهب: ٨/ ٥١) (الضوء اللامع: ٣/ ٦٥).

(١) وكتب مجلداً فيه الصيام والحج والجهاد.

(٢) شرح حافل ينقل فيه عن شيخه العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ.

(٣) هو العلامة المحدث القاضي حسين بن محسن الأنصاري اليماني (١٢٤٥ ـ ١٣٢٧ هـ) ولد بالحديدة وتفقه على مذهب الشافعي وأخذ الحديث عن العلامة حسن بن عبد الهادي الأهدل ثم توجه إلى اليمن وأخذ عن العلامة سليمان بن محمد بن عبد الرحمن الأهدل، وأجازه الشيخ أحمد بن القاضي محمد بن علي الشوكاني والعلامة ناصر الدين الحازمي، وولي القضاء ببلدة لحيه ثم تركها وقدم الهند، ولبث في بهوفال سنتين، ثم رجع إلى وطنه ثم عاد وتوطن ببلدة بهوفال، وقد طار صيته في الأقطار الهندية، وخضع لعلمه كبار العلماء والمحدثين وأسندوا عنه، لم يشتغل بالتأليف والتصنيف ولو أراد ذلك لكانت له مصنفات في الحديث، له بعض الرسائل وبعض التعليقات على سنن أبي داود (نزهة =

شرحه في بعض بلاد العرب وذكر أنه في ثماني مجلدات كبار كما جاء في غاية المقصود[١].

وشرحه الشيخ شهاب الدين بن أحمد بن الحسين الرملي المقدسي الشافعي[٢].

وشرحه العلامة بدر الدين محمود بن أحمد العيني الحنفي (م سنة ٨٥٥ هـ)[٣] ولم يكمل.

وشرحه العلامة جلال الدين السيوطي (سنة ٩١١هـ)[٤] وسماه «مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود» وعليه حاشية للعلامة السيد

= الخواطر: ٨/ ١١١).

(١) غاية المقصود: ص/ ٩.

(٢) هو الإمام العلامة شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن أرسلان المقدسي الشافعي (٧٧٥ ـ ٨٤٤ هـ) ولد برملة فلسطين، حفظ القرآن في صباه وأخذ عن الشمس القلقشندي وابن الهائم والجلال البلقيني وطبقتهم وبرز في الحديث والفقه والأصول، وتصدى للتدريس والإفتاء ثم تركهما بعد مدة وسلك طريق الزهد والعبادة وجدَّ فيه حتى بلغ رتبة الكمال، له تصانيف منها شرحه للبخاري وأبي داود وغيرها، توفي بالقدس (شذرات الذهب: ٧/ ٢٤٨) (الضوء اللامع: ١/ ٢٨٢) (الأعلام: ١/ ١١٥).

(٣) سلف ذكره.

(٤) سلف ذكره.

علي بن سليمان الدمنتي البجمعوي[١] وسماه «درجات مرقاة الصعود» وقد قال في مقدمته: «هذا اختصارنا لمرقاة الصعود إلى سنن أبي داود للعلامة السيوطي وهو تعليق على نسق أصله الذي لخص به معالم السنن[٢] للإمام أبي سليمان الخطابي وضم إليه الفوائد الزوائد والحرائد الشرائد (وهو في جزء واحد طبع في المطبعة الوهبية سنة ١٢٩٨ هـ).

وقد شرحه العلامة الشيخ محمود محمد خطاب السبكي المصري (م سنة ١٣٥٢ هـ)[٣] وسماه: «المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود» وهو شرح حافل في أجزاء ولم يتم،

(١) هو العلامة أبو الحسن علي بن سليمان الدمنتي البجمعوي من أعلام المغاربة ولد في دمنات سنة ١٢٣٤ هـ، له مصنفات منها «لسان المحدث» ومنظومة في اصطلاح الحديث وشرحها وغير ذلك، توفي سنة ١٣٠٦ هـ، (الأعلام: ٥٠/٤ ١٠٤).

(٢) لخصه شهاب الدين المقدسي وقد ذكرته آنفاً.

(٣) هو المصلح الكبير الداعي إلى الله الشيخ محمود الخطاب السبكي، تعلم العلم كبيراً، وتخرج في الأزهر وكانت دراسته بكاملها في نحو سنة كما حكى هو عن نفسه في كتابه «فتاوى أئمة المسلمين» ودرس في الأزهر وقام بدعوة دينية إصلاحية، كان لها تأثير كبير في إزالة البدع والمنكرات واتباع السنة وطريقة السلف الصالح، وأسس جمعية سماها «الجمعية الشرعية لتعامل العاملين بالكتاب والسنة المحمدية» لقيت ابنه وخليفته الشيخ أمين محمود خطاب في مصر سنة ١٣٨٠ هـ وتعرفت بكثير من أعضائها، راجع «مذكرات سائح في الشرق العربي» لكاتب هذه السطور. =

وقد وصل المؤلف في شرحه إلى «باب التلبيد».

وكان نصيب علماء الهند من خدمة هذا الكتاب الجليل نصيباً غير منقوص، شأنهم في خدمة علم الحديث عامة، وخدمة الصحاح الستة بصفة خاصة.

فأول من شرحه من علماء الهند العلامة أبو الحسن السندي ابن الهادي المدني[١] (وهو شرح لطيف) سماه «فتح الورود على سنن أبي داود».

وتلاه علماء آخرون فعني به العلامة المحدث الكبير شمس الحق الذيانوي[٢] فبدأ بشرح عظيم محيط بمباحث الكتاب والمتون

(١) هو الشيخ العلامة أبو الحسن نور الدين محمد بن الهادي الحنفي السندي المحدث الكبير، ولد ببلدة (تته) من السند ونشأ بها ثم سافر إلى تستر وأخذ عن جملة من الشيوخ ثم هاجر إلى المدينة المنورة وأخذ عن السيد محمد بن عبد الرسول البرزنجي والشيخ إبراهيم بن حسن الكوراني وعن غيرهما ودرس بالحرم النبوي الشريف واشتهر بالفضل والذكاء والصلاح وألف مؤلفات نافعة أشهرها تعليقاته على الكتب الستة ومسند الإمام أحمد وشرحه على الأذكار للنواوي توفي سنة ١١٣٨ هـ بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع (نزهة الخواطر: ٦/ ٦).

(٢) هو الشيخ العلامة شمس الحق بن أمير علي الذيانوي العظيم آبادي (١٢٧٣ ـ ١٣٢٩ هـ) قرأ المختصرات في بلده ثم سافر إلى لكهنؤ ولازم الشيخ فضل الله اللكنوي ثم ارتحل إلى مراد آباد ولازم العلامة بشير الدين العثماني القنوجي ثم سافر إلى دهلي، وأسند الحديث عن الشيخ نذير =

والأسانيد ، لو تم لكان عملاً جليلاً ، ومن شروح الحديث الكبيرة الشاملة ، إلا أنه لسعة دائرته وضخامة عمله لم يتم وسماه «غاية المقصود» وقد احتوى على بحوث مفيدة وفوائد كثيرة ، ولعل المؤلف قد شعر بأن هذا العمل لا يتم في حياته فضيق دائرة التأليف، وصغر إطار الكتاب وأخرج الكتاب في أربعة أجزاء وسماه «عون المعبود» ونسبه إلى أخيه الشيخ محمد أشرف وهو من تأليفه حقيقة .

وترجمه الشيخ وحيد الزمان اللكهنوي الحيدر آبادي الملقب بوقار نواز جنَّد[1] وتناوله بالشرح والإيضاح وسماه «الهدي

= حسين ورجع إلى بلدته ثم سافر مرة ثانية وقرأ عليه بعض الكتب وأسند عن العلامة حسين بن محسن الأنصاري ثم رجع إلى بلدته وعكف على التدريس والتصنيف والتذكير وبذل جهده في نصرة السنة ونشر كتب الحديث ، سافر إلى الحجاز فحج وزار وأدرك المشائخ فاستفاد منهم وأفاد ، له تصانيف كثيرة أشهرها غاية المقصود في شرح أبي داود (نزهة الخواطر : ٨/ ١٧٩).

(١) هو الشيخ العالم الكبير وحيد الزمان بن مسيح الزمان العمري (١٢٦٧ ـ ١٣٣٨ هـ) ولد بكانفور وقرأ على المفتي عناية أحمد الكاكوروي وعلى غيره من العلماء ثم لازم العلامة عبد الحي اللكنوي وأخذ عنه ، سافر إلى الحجاز ، وأخذ الحديث عن الشيخ أحمد بن عيسى الحنبلي ثم رجع إلى الهند وسكن بحيدر آباد وخدم الدولة الآصفية حتى صار معتمداً للوزير ولقبه صاحب الدكن بـ «نواب وقار نواز جنَّد بهادر» ثم اعتزل في بيته عاكفاً على المطالعة والتأليف ، وبعد مدة هاجر إلى المدينة=

المحمود في ترجمة سنن أبي داود».

وقد جمع أحد تلاميذ العلامة أنور شاه الكشميري[١] وهو الشيخ أبو العتيق عبد الهادي محمد صديق النجيب آبادي[٢] إفادته في درس «سنن أبي داود» وضم إليها فوائد اقتبسها من «بذل المجهود» للعلامة خليل أحمد السهارنبوري[٣] وزاد فوائد أخرى التقطها من

= المنورة ولكنه اضطر إلى العودة.
كان من كبار مؤلفي عصره ترجمة وتصنيفاً، راسخ القدم في علم اللغة والحديث، له تصانيف كثيرة ومن أحسن مؤلفاته «وحيد اللغات في غريب الحديث ومفرداته» ـ في ثمانية وعشرين مجلداً ـ (نزهة الخواطر: ٨/ ٥١٣ ـ ٥١٥).

(١) هو الشيخ العلامة أنور شاه بن معظم شاه الحسيني الحنفي الكشميري (١٢٧٣ ـ ١٣٥٢ هـ) قرأ المختصرات على والده ثم سافر إلى (بكَلي) وقرأ على أساتذتها ثم ارتحل إلى ديوبند وأكمل دراسته على أساتذتها ولي التدريس بالمدرسة الأمينية بدهلي ثم سافر إلى الحجاز للحج والزيارة وبعد عودته أقام بديوبند للتدريس ثم ولي رئاسة التدريس بها، وحينما حدثت الفتنة في ديوبند غادر إلى دابهيل على طلب بعض تلامذته وانتفعت به هذه البلاد حتى أنهكته الأمراض فرجع إلى ديوبند.
كان نادرة عصره في قوة الحفظ وسعة الاطلاع على كتب المتقدمين والتضلع في الفقه والأصول والرسوخ في العلوم الدينية، دقيق النظر في طبقات الفقهاء والمحدثين ومراتب كتبهم، نفع الله بدرسه خلقاً كثيراً وتخرج على يده عدد كبير من الفضلاء (نزهة الخواطر: ج/ ٨).

(٢) لم نعثر على ترجمته.

(٣) سلف ذكره.

درس العلامة محمود حسن الديوبندي[١] المعروف بشيخ الهند ، لصحيح البخاري ودرس العلامة شبير أحمد العثماني[٢] لكتاب صحيح مسلم[٣] وألف من كل ذلك كتاباً أسماه «أنوار المحمود» في جزأين[٤] وتم الشرح فيهما .

(١) سلف ذكره .

(٢) هو العلامة الشيخ شبير أحمد بن فضل الرحمن العثماني (ولد في سنة ١٣٠٥ هـ) وقرأ في ديوبند ، أخذ عن العلامة محمود حسن الديوبندي ، وبرز في الحديث والتفسير والكلام ودرس في ديوبند ثم ارتحل إلى دابهيل مع العلامة أنور شاه الكشميري وبعد مدة عاد إليها وأقام سبع سنين عاكفاً على الدرس والإفادة ثم تركها ، سافر عدة مرات إلى حيدر آباد حتى ولاه النظام إدارة دار العلوم العربية ولكنه غادر إلى باكستان ولم تمكنه العودة إلى الهند ، إنه رحل إلى الحجاز للحج والزيارة ١٩١١ م وألقى محاضراته بالعربية تأثر بها العلماء الوافدون من أنحاء العالم الإسلامي .
له مصنفات عديدة أشهرها «فتح الملهم بشرح صحيح مسلم» ولم يتم وأراد إكماله الشيخ محمد تقي العثماني ، وله تفسير القرآن الكريم ، وفضل الباري بشرح صحيح البخاري في الأردية ، جمعه ورتبه الشيخ القاضي عبد الرحمن ، وغيرها من المصنفات ، توفي في باكستان سنة ١٣٦٩ هـ .

(٣) مضت ترجمته .

(٤) طبع هذا الكتاب في تجلي برس دهلي سنة ١٣٣٠ هـ وعدد صفحات الجزء الأول ٦١٠ ، وعدد صفحات الجزء الثاني ٥٦٨ .

وللشيخ فخر الحسن الكَنكَوهي[١] تعليق على سنن أبي داود وسماه «التعليق المحمود».

وللشيخ العلامة المحدث القاضي حسين بن محسن الأنصاري اليماني[٢] تعليقات على سنن أبي داود، ولتلميذه العلامة السيد عبد الحي الحسني[٣] مؤلف «نزهة الخواطر» تعليق على السنن كذلك لم يتم[٤].

وكان الشيخ العلامة المحدث الكبير مولانا خليل أحمد السهارنبوري[٥] من كبار المعنيين بسنن أبي داود تدريساً وتحقيقاً

---

(١) هو الشيخ العالم الكبير فخر الحسن بن عبد الرحمن الحنفي الكَنكَوهي، أخذ الحديث عن العلامة رشيد أحمد الكَنكَوهي، وأخذ الصناعة الطبية عن الحكيم محمود بن صادق الشريفي الدهلوي، واشتغل بمداواة الناس في آخر عمره لكانفور، كان حلو اللفظ والمحاضرة، موصوفاً بالصدق والصفاء صاحب حمية وشجاعة، متصلباً في المذهب، يشتغل كثيراً بالمناظرة بين الهندوس والنصارى، له تعليقات على بعض الكتب وتعليق بسيط على سنن أبي داود، توفي سنة ١٣١٥ هـ لكانفور، (نزهة الخواطر: ٨/ ٣٥٤).

(٢) سلف ذكره.

(٣) سلف ذكره.

(٤) نسخته الخطية موجودة في مكتبة ندوة العلماء العامة (مكتبة العلامة شبلي النعماني).

(٥) مضت ترجمته.

وكان مما جرت به العادة ووقع عليه الاتفاق في مدرسة «مظاهر العلوم» التي كان مديرها ورئيس أساتذتها أن يباشر هو تدريس هذا الكتاب ، أو يتولاه الشيخ العلامة محمد يحيى بن إسماعيل الكاندهلوي[١] لا يتخطاهما إلا نادراً ، وكانت فكرة شرح هذا الكتاب تراود الشيخ منذ أيام الطلب وعنفوان الشباب ، وكان يتمنى على الله أن يوفق لهذا العمل الجليل وقد شرع في ذلك فعلاً وبدا له أن يسميه «حل المعقود الملقب بالتعليق المحمود على سنن أبي داود» وأقبل على هذا العمل بعد أن عين مدرساً وقد شرع فيه ثلاث مرار ، وكان الشروع فيه للمرة الثالثة سنة ١٣١١ هـ إلا أنه لم يقدر له الاستمرار فيه ، وإكماله في ذلك الحين فصرفته عنه الأشغال العلمية ، والدروس المرهقة ، والأسفار المتتابعة ، وقد كانت لله في ذلك حكمة خفية ، فقد أراد الله أن يتم هذا العمل على يده ، وقد بلغ درجة النبوغ والنضج العقلي ، وتوسعت دراسته واتسع نطاق علمه ، وظهرت كتب جديدة في شرح هذا الكتاب ،

(١) هو العالم الكبير الشيخ محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (١٢٨٨ ـ ١٣٣٤ هـ) والد العلامة الجليل المحدث الكبير محمد زكريا الكاندهلوي ـ رحمه الله ـ حفظ القرآن في صباه وقرأ على أبيه حتى برع في المعقول والمنقول ، أخذ الحديث عن العلامة رشيد أحمد الكنكَوهي ، درس في «مظاهر العلوم» على طلب من العلامة خليل أحمد السهارنفوري ، كان له شغف خاص بتلاوة القرآن الكريم وإعانة اليتامى والمساكين ، توفي بسهارنفور ودفن بها .

فجاء الكتاب حصيلة دراسته وعصارة مطالعته.

وكان الباعث الأول على تأليف هذا الشرح هو شغفه بحديث رسول الله - ﷺ - الذي لا يعرف مداه وسره إلا من ذاق حلاوة الحب وشغف بمحبوبه وبكل ما يصدر عنه ويتصل به وينسب إليه، وحرصه على الاشتغال بالحديث لفظاً ومعنىً ومنطوقاً ومفهوماً، وشرحاً وتحقيقاً وفحصاً وبحثاً، ولما كان الشرح ضامناً كافلاً بهذا الاشتغال والخوض في أعماق الحديث آثره الشيخ والتزمه فإن تم الشرح وتحققت الأمنية، فنعم وحبذا، وإلا فقد قضى هذه المدة في شغل عزيز لذيذ وفي سعادة وغبطة وسرور.

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وكان الباعث الثاني عليه هو عدم وجود شرح واف لهذا الكتاب الجليل بقلم عالم حنفي يجمع بين التبحر في الحديث والتضلع في الفقه، مع أن الكتاب من أهم الكتب التي يعتمد عليها في إثبات مذهب أو رد مذهب، لأن موضوعه الخاص وميزته الكبرى هو أحاديث الأحكام وهي التي يكثر فيها الخلاف، وتتجلى فيها القدرة على التحقيق وقوة الاستدلال، وذلك ما أهم المؤلف وشغل خاطره.

* * *

النشـاط العلمـي والعقلـي فـي العالـم الإسلامـي

ولم يزل علماء الإسلام منذ قديم الزمان يشرحون كتب الحديث وفي مقدمتها ـ الصحاح الستة ـ بوجهة نظرهم الخاصة ويطبقون بين الأحاديث وآراء مذهبهم ويقدمون دلائلها من كتب الحديث الموثوق بها ، المعتمد عليها ، كما فعل الإمام أبو جعفر الطحاوي[١] في شرح معاني الآثار وكما فعل العلامة الزيلعي[٢] في

(١) هو الإمام العلامة أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي (٢٣٧ ـ ٣٢١ هـ) سمع عن هارون بن سعيد ويونس بن عبد الأعلى والمزني وطبقتهم ، وروى عنه الخشاب وابن المقري والطبراني وغيرهم ، رحل إلى الشام وتفقه بالقاضي أبي حازم وغيره ، وبرع في الفقه والحديث ، كان ثقة ثبتاً عالماً بمذاهب الفقهاء لم يخلف مثله ، انتهت إليه رئاسة أصحاب مصر ، له تصانيف بديعة ممتعة ، منها معاني الآثار ومشكل الآثار وغيرهما ، (تذكرة الحفاظ : ٣/ ٨٠٨) (وفيات الأعيان : ١/ ٥٣) (شذرات الذهب : ٣/ ٢٨٨) (الجواهر المضيئة : ١/ ١٠٤) (الفوائد البهية : ص/ ١٨).

(٢) هو الإمام العلامة جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي الحنفي (م ٧٦٢ هـ) سمع من أصحاب النجيب وأخذ عن الفخر =

نصب الراية ، والعلامة علاء الدين ابن التركماني[1] في الجوهر النقي ، وسادتنا الشافعية ـ والحق أحق أن يقال ـ قد أحرزوا قصب السبق في ميدان التأليف والتدوين[2] فإذا ألف أحدهم شرحاً لكتاب سن كتب الصحاح تلاه عالم كبير من علماء المذهب الحنفي فألف شرحاً آخر لهذا الكتاب ، وإذا ألف أحد كبار علماء الشافعية أو المالكية كتاباً في التفسير أو في أصول الفقه وتلقاه الناس بالقبول وسارت به الركبان وشغف به الأوساط العلمية والحلقات

= الزيلعي وابن التركماني وغيرهما ، ولازم مطالعة كتب الحديث حتى برز فيه ، له مصنفات ممتعة ، منها : نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ، وتخريج أحاديث الكشاف وغيرهما ، (ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي : ص/ ٦٢) (الدرر الكامنة : ٢/ ٣١٠).

(١) هو الإمام العلامة علاء الدين علي بن عثمان بن إبراهيم بن مصطفى المارديني المعروف بابن التركماني الحنفي (٦٨٣ ـ ٧٥٠ هـ) ولد في بيت عريق في العلم والدين ، أخذ عن الأبرقوهي والدمياطي وطبقتهما وولي قضاء الحنفية بالديار المصرية ودرس وأفاد ، أخذ عنه العراقي والزيلعي وعبد القادر القرشي وغيرهم ، كان إماماً في التفسير والحديث والفقه والأصول ، له مصنفات مفيدة منها «الجوهر النقي في الرد على البيهقي» في مجلدين ضخمين ، وغيره من الرسائل الممتعة ، (ذيل تذكرة الحفاظ : ص/ ١٢٥) (الدرر الكامنة : ٣/ ٨٤) (الجواهر المضيئة : ١/ ٣٦٦) (الفوائد البهية : ص/ ٥١).

(٢) خاصة في التفسير والحديث ، أما الفقه بجزئياته واستنباطاته الدقيقة فللحنفية فيه تقدم وشأن.

التعليمية ، جاء عالم حنفي فألف كتاباً في نفس الموضوع قد يفوقه وقد يدرك شأوه وقد يتخلف عنه ، شأن الكتب العلمية والجهود البشرية في كل زمان ومكان وهذه قصة عمدة القاري للعلامة بدر الدين العيني[١] مع فتح الباري للعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني[٢] وهذا هو الدافع النبيل الذي دفع بعض كبار علماء الحنفية إلى تأليف كتاب في تفسير القرآن بعد ما كثرت مؤلفات علماء الشافعية في التفسير ، وانتشرت في الآفاق ، وأقبل عليها الطلبة والعلماء درساً وتدريساً كما فعل العلامة أبو البركات حافظ الدين النسفي[٣] في كتابه : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، والعلامة أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي[٤] في

---

(١) مضت ترجمته .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) هو الإمام العلامة عبد الله بن أحمد بن محمود أبو البركات حافظ الدين النسفي (م ٧١٠ هـ) برز في الفقه والحديث والتفسير ، تفقه على شمس الأئمة الكردري وعلى غيره من العلماء ، كان إماماً كاملاً عديم النظير في زمانه ، له مصنفات جليلة أشهرها كنز الدقائق في الفقه وغيره ، (الدرر الكامنة : ٢/ ٢٤٨) (الفوائد البهية : ص/ ٤٢) (الجواهر المضيئة : ١/ ٢٧٠) (معجم المؤلفين : ٦/ ٣٢) .

(٤) هو الإمام العلامة أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (٨٩٨ ـ ٩٨٢ هـ) قرأ على والده وصار ملازماً من المولى سعدي جلبي ثم ولي قضاء برسة ، ثم قضاء قسطنطينية ثم قضاء العسكر في ولاية روم ايلي ، ثم تولى الفتيا واستمر على ذلك إلى وفاته ، كان عميق النظر =

تفسيره المسمى بـ (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) والمحدث الكبير والفقيه الشهير القاضي ثناء الله الباني بتي[1] في التفسير المظهري.

والعلم الثالث الذي له صلة وثيقة بالمذاهب والآراء الفقهية وعليه أساس استنباط المستنبطين واجتهاد المجتهدين، هو علم أصول الفقه فكان المجال الثالث لتأليف فحول علماء المذهب ونوابغهم، فألف العلامة أبو الحسين البصري[2] وإمام الحرمين

= في الفقه والفتوى وسيع الاطلاع في الفنون، له بعض التصانيف النافعة منها كتابه في التفسير وحاشية على العناية وبعض التعليقات على الكشاف، (شذرات الذهب: ٨/ ٣٩٨).

(١) هو العلامة المحدث ثناء الله العثماني الباني بتي أحد العلماء الراسخين، ولد ونشأ ببلدة باني بت وقرأ على أساتذة بلدته ثم سافر إلى دهلي وأخذ عن الإمام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وبرز في الفقه والحديث والتفسير، قال الشيخ غلام علي الدهلوي: «إنه كان متفرداً في أقرانه في التقوى والديانة مشتغلاً بالتدريس والتصنيف وفصل القضايا، وإنه بلغ إلى رتبة الاجتهاد في الفقه والأصول، له مصنفات مشهورة منها، التفسير الطبري في سبع مجلدات و«مالا بد منه» في الفقه، وكتاب مبسوط في مجلدين في الحديث ورسائل أخرى، توفي في بلدته سنة ١٢٢٥ هـ (نزهة الخواطر: ٧/ ١١٥).

(٢) هو العلامة أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري المتكلم على مذهب المعتزلة وهو أحد أئمتهم الأعلام المشار إليه في هذا الفن، كان إمام وقته، له التصانيف الفائقة في أصول الفقه منها (المعتمد) وغير ذلك=

العلامة أبو المعالي عبد الملك الجويني[١] وحجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي[٢] والعلامة علي بن أبي المظفر الآمدي[٣]

= من المصنفات، سكن ببغداد وتوفي فيها سنة ٤٣٦ هـ (وفيات الأعيان: ٤/ ٢٧١) (شذرات الذهب: ٣/ ٢٥٩).

(١) هو العلامة الإمام إمام الحرمين أبو المعالي ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني الشافعي (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ) تفقه على والده في صباه وبعد وفاته أخذ عن تصانيفه حتى أربى على المتقدمين وجلس على مسند والده ثم تركه وسافر إلى مكة وجاور بها أربع سنين ولقب بإمام الحرمين، ثم رجع إلى نيسابور وذهب إلى بغداد وتولى تدريس النظامية وحصل له القبول ما لم يحصل لغيره ومكث على ذلك ثلاثين سنة ثم رجع إلى نيسابور واشتغل بالتأليف والتصنيف حتى وافته المنية، له مصنفات بديعة منها: البرهان في أصول الفقه، والنظامي، والغياثي، وغيرها، (شذرات الذهب: ٣/ ٣٥٨) (سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٤٦٨) (طبقات الشافعية: ٣/ ٢٤٩).

(٢) هو الإمام حجة الإسلام زين العابدين أبو حامد محمد بن محمد الطوسي الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) أخذ عن إمام الحرمين حتى برع في زمن أستاذه، ثم ولي التدريس بمدرسة النظامية ببغداد وهنا بعد صيته وارتفعت منزلته فترك جميع ما كان عليه وسلك طريق الزهد وبلغ الكمال، إنه دخل في أحشاء الفلسفة ثم خرج منها وصنف كتابه: تهافت الفلاسفة للرد عليها وهي من أكبر مآثره، وله غير ذلك مصنفات نافعة أشهرها (إحياء علوم الدين).

(٣) هو العلامة أبو الفضائل علي بن أبي المظفر يوسف بن أحمد بن محمد بن الحسين الآمدي الواسطي الشافعي (٥٥٩ ـ ٦٠٨ هـ) تفقه ببغداد على =

والإمام فخر الدين الرازي[١] وغيرهم من كبار علماء الشافعية.

والعلامة جمال الدين بن حاجب[٢] والعلامة أبو إسحاق الشاطبي[٣] من علماء المالكية، والإمام محمد بن الحسين

= الشيخ أبي طالب صاحب ابن الحلل وغيره، وسمع الحديث من جماعة كثيرة ببلدته واسط وبغداد ثم تولى القضاء بواسط، كان له معرفة بالحساب وقد كان يقرض الشعر، توفي بواسط (وفيات الأعيان: ٣/ ٧٥).

(١) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين فخر الدين الرازي المفسر (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) قرأ على والده ثم قصد الكمال السمناني ثم صحب المجد الجيلي حتى فاق أقرانه في علم الكلام والمعقولات وبعد صيته، وكان العلماء يقصدونه من البلاد وتشد إليه الرحال، له مصنفات بديعة ممتعة أشهرها (التفسير الكبير) (وفيات الأعيان: ٣/ ٣٨١) (طبقات الشافعية للسبكي: ٥/ ٣٣).

(٢) هو العلامة أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدوني ثم المصري الفقيه المالكي جمال الدين بن الحاجب (٥٧٠ ـ ٦٤١ هـ) تفقه على مذهب مالك، وبرع في العربية والقراءات وانتقل إلى دمشق ودرس بجامعها في زاوية المالكية ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها وأفاد خلقاً كثيراً، له مصنفات نافعة في أصول الفقه والنحو والصرف (وفيات الأعيان: ٣/ ٢٤٨) (شذرات الذهب: ٥/ ٢٣٤).

(٣) هو الإمام إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي الشهير بأبي إسحاق الشاطبي (م ٧٩٠ هـ) محدث فقيه، أصولي، لغوي، مفسر، من مؤلفاته (عنوان التعريف بأسرار التكليف) في الأصول و(الموافقات) في أصول الأحكام وغيرهما، (معجم المؤلفين: =

أبو يعلى [١] والعلامة ابن قدامة المقدسي[٢] من علماء الحنبلية ، مؤلفاتهم الشهيرة في علم الأصول وسارت بها الركبان ودرجت الأجيال على دراستها ، وحفظ بعضها وشرحها عدة قرون ، صنف الإمام علي بن محمد بن عبد الكريم فخر الإسلام البزدوي[٣] من

= ١/ ١١٨).

(١) هو الإمام أبو يعلى بن الفراء شيخ الحنابلة القاضي الحبر محمد بن الحسين ، محمد بن خلف البغدادي (٣٨٠ ـ ٤٥٨ هـ) صاحب التصانيف وفقيه العصر ، حدث عن أبي العربي والمخلص وطبقتهما وتفقه على أبي عبد الله بن حامد ، وأملى عدة مجالس وولي قضاء الحريم ، له تصانيف كثيرة منها (الكفاية) و(العدة) في أصول الفقه و(أحكام القرآن) وغيرها من المصنفات ، (شذرات الذهب: ٣/ ٣٠٦) (الأعلام: ٦/ ٣٣١).

(٢) هو العلامة الإمام عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي ، أبو محمد موفق الدين الفقيه المجتهد (٥٤١ ـ ٦٢٠ هـ) أخذ عن الشيخ عبد القادر وهبة الله الدقاق وابن البطي وتفقه على ابن المنى حتى فاق أقرانه وانتهى إليه معرفة المذهب وأصوله ، أخذ عنه ابن الدبيشي والضياء ، والمنذري وغيرهم ، له مصنفات نافعة ضخمة منها المغني في سبع مجلدات كبار والبرهان في علوم القرآن والروضة في الأصول وغيرها ، (شذرات الذهب: ٥/ ٨٨) (معجم المؤلفين: ٦/ ٣٠).

(٣) هو الإمام العلامة أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم الحنفي الفقيه الأصولي ولد في حدود أربعمئة ، يقول العلامة اللكنوي: «هو الإمام الكبير الجامع بين أشتات العلوم إمام الدنيا في الفروع =

علماء الحنفية كتابه المشهور بـ (أصول البزدوي) وصنف الشيخ العلامة حسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأخسيكثي[1] الحنفي كتابه (المنتخب الحسامي) وألف الشيخ العلامة كمال الدين بن الهمام الحنفي[2] كتابه المشهور (التحرير) وتداولت الأيدي هذه الكتب وأقبل عليها العلماء دراسة وتدريساً وشرحاً وتلخيصاً حتى

= والأصول» وكان يضرب به المثل في الحفظ ، له تصانيف جليلة وكتاب كبير في أصول الفقه المعروف بأصول البزدوي توفي سنة ٤٨٢ هـ ، (سير أعلام النبلاء : ١٨/ ٦٠٢) (الجواهر المضيئة : ١/ ٣٧٢) (الفوائد البهية : ص/ ٥٢).

(١) هو الإمام محمد بن محمد عمر الأخسيكثي الحنفي أبو عبد الله حسام الدين ، كان إماماً في الفروع والأصول له المختصر في أصول الفقه ، المعروف بالمنتخب الحسامي ، تفقه عليه محمد بن عمر النوحاباذي ومحمد بن محمد البخاري توفي سنة ٦٤٤ هـ ، (الجواهر المضيئة : ٢/ ١٢٠) (الفوائد البهية : ص/ ١٨٨).

(٢) هو الإمام العلامة كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود الكمال بن همام الدين السيواسي ثم الإسكندري المعروف بابن الهمام الحنفي (٧٩٠ ـ ٨٤١ هـ) أخذ عن السراج والقاضي محب الدين ابن الشحنة وأبي زرعة ابن العراقي وغيرهم حتى فاق أقرانه وبرع في العلوم وتصدى لنشرها ، فانتفع به خلق ، كان ماهراً في الفقه والأصول والنحو والتصريف والمعاني والبيان ، محققاً جدلياً ، أفتى برهة من الزمان ثم تركها ودرس الفقه ثم تركه وجاور بالحرمين ، له مصنفات بديعة نافعة منها ، «فتح القدير للعاجز الفقير» شرح الهداية ، (الضوء اللامع : ٨/ ١٢٧) (شذرات الذهب : ٧/ ٢٩٨).

جاء الشيخ العلامة محب الله بن عبد الشكور الحنفي البهاري الهندي[١] فصنف كتابه المشهور (مسلم الثبوت) فتهافت عليه العلماء والمؤلفون وتناولوه بالشرح والتعليق ، وقد شغل هذا الكتاب أذكى علماء البلاد وأبرعهم أكثر من قرن ، وبلغ عدد شروحه ، وتعليقاته التي اشتهرت بين الناس ثمانية شروح على ما جاء في كتاب (الثقافة الإسلامية في الهند) للعلامة السيد عبد الحي الحسني[٢] وكان ذلك طبيعياً ومعقولاً ، ومما اقتضته طبيعة اختلاف المذاهب وطبيعة العلم والبحث.

إن هذه الحركة العلمية القوية التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي واستمرت إلى عهد قريب ، وظهرت ، بشكل خاص في مجال شروح الحديث وكتب التفسير وأصول الفقه ،

---

(١) هو الشيخ العلامة محب الله بن عبد الشكور العثماني الصديقي الحنفي البهاري الهندي أحد الأذكياء المشهورين ، قرأ بعض الكتب الدرسية على الشيخ قطب الدين الأنصاري وأكثرها على الشيخ قطب الدين الحسيني الشمس آبادي ، ثم رحل إلى معسكر السلطان عالمكَير فولاه القضاء بمدينة لكهنؤ ثم نقله بعد مدة إلى حيدر آباد ثم عزله عن القضاء وجعله معلماً لحفيده رفيع القدر ولما ولي شاه عالم ولاه الصدارة العظمى ولقبه (فاضل جاه).
من مصنفاته (سلم العلوم) في المنطق و(مسلم الثبوت) في أصول الفقه مقبولة متداولة في المدارس والعلماء ، توفي سنة ١١١٩ هـ ، (نزهة الخواطر : ٦/ ١٥٢).

(٢) مضت ترجمته.

أفادت النشاط العقلي والعلمي في العالم الإسلامي إفادة كبيرة لأنها مخضت المكتبة الإسلامية الدينية وغربلتها غربلة ونخلت كتب الحديث والرجال وعلمي الأصول ، للاحتجاج لما يراه المؤلفون وعلماء المذاهب من الآراء الفقهية من الكتاب والسنة والحديث الصحيح وإقامة الدليل والبرهان عليه ، فلم يبق جانب من جوانب الحديث النبوي وما يتصل به من علوم ومقدمات إلا وكشف عنه ، ولا موضوع له نسب قريب أو بعيد بالسنة وآيات الأحكام إلا وبحث ودرس ونوقش واستعملت العقول في ذلك إلى أقصى حدودها ، فكان كل ذلك مما يعود على الشريعة الإسلامية بالنفع ، وتكونت هذه المكتبة الدينية التي لا نظير لها في الملل والأمم.



تأليف كتاب «بذل المجهود في حل أبي داود» ومنهج المؤلف فيه

في سنة ١٣٣٥ هـ حين بلغ الشيخ أربعاً وستين سنة من عمره ، جاء الوقت الموعود المقدر لتأليف هذا الكتاب ، فذكر أمنيته القديمة التي لم تفارقه مدة حياته الدراسية والتأليفية لتلميذه الذي ظهرت عليه آثار النجابة والنبوغ واختص بالشيخ اختصاصاً لم يكتب لغيره ، وهو العالم الناهض محمد زكريا[1] (ابن صديقه مولانا محمد يحيى الكاندهلوي) الذي تخرج من المدرسة حديثاً وعين مدرساً صغيراً فيها ، وذكر أنه لا يزال عنده حنين كامن لتأليف هذا الكتاب ، إلا أن الأسباب لم تتهيأ له ، وقد وهنت قواه وضعف بصره ، وكان أكبر الاعتماد في إنجاز هذا العمل على والده العظيم الشيخ محمد يحيى[2] الذي رزق قسطاً من الذكاء وحسن الملكة في علم الحديث ، وكان من أنجب تلاميذ الشيخ الإمام المحدث

(١) مضت ترجمته .

(٢) مضت ترجمته .

مولانا رشيد أحمد الكَنكَوهي[١] وكان شديد التجاوب معه ، عجيب التوارد في المباحث العلمية ، والمسائل الغامضة الدقيقة خصوصاً في تطبيق الحديث والفقه ، وبيان الحجج والدلائل للمذهب الحنفي وقد توفي ـ رحمه الله ـ في سنة ١٣٣٤ هـ ، ففقد لوفاته العضد الأيمن والمساعد الأكبر ، وحزن عليه حزناً شديداً لخسارة العلم ورزيئة صناعة التعليم فيه ، وكان دائماً يشعر بمكانه الشاغر وقال له وهو يمشي معه مرة : إذا ساعدتني أنت وزميلك حسن أحمد[٢] في تأليف هذا الشرح فلعل ذلك يحقق أمنيتي .

ولما وصل الشيخ الكبير إلى هذه النقطة من حديثه اهتز له تلميذه النجيب وصادف ذلك رغبة ملحة دفينة في نفسه في الحرص على خدمة الحديث الشريف والمثابرة عليه ، والتفاني فيه ، وإفناء العمر والقوى في سبيله ولم يكن يجد لذلك سبيلاً ولا يصدق أنه ممكن ، لأنه الآن في الشوط الأول من التدريس ، فمتى يصل إلى الاشتغال بكتب الحديث وكيف تتأتى له هذه الفرصة؟ فكان قد دعا الله مخلصاً ومبتهلاً حين قرأ فاتحة الفراغ على والده وأستاذه ، أن لا ينقطع عن الاشتغال بالحديث ويظل حياته عاكفاً عليه بالتدريس والتأليف ، فكأنما تكلم الشيخ على لسانه ، وعبر عن جنانه ، وتحقق حلمه اللذيذ الذي كان يراه بعيد المنال وضرباً من المحال ، فلم

(١) مضت ترجمته .

(٢) كان من تلاميذ الشيخ الأذكياء المرجوين ومات شاباً ـ رحمه الله ـ .

يتمالك نفسه وانفجر قائلاً: هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً، ولعل الله أجاب دعائي وقص عليه القصة بطولها وفرح الشيخ ودعا له بالتوفيق، وأملى أسماء كتب يستعان بها في هذا الموضوع، وابتدأ العمل من غد، وكان ذلك لليلة خلت من ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلاثمئة وألف.

وكان منهج التأليف أن الشيخ كان يرشد إلى مظان الموضوع في الكتب التي جمعت وتوجد في مكتبة المدرسة وكان التلميذ يجمع المواد العلمية وما كتبه المتقدمون من الشراح والمؤلفين ويعرضها على الشيخ فيختار منها ما يستحسنه، ويملي الشرح، واستمر العمل، والشيخ لا هم له ولا لذة إلا في هذا العمل الذي يعده من أعظم القربات ومن أفضل العبادات، والتلميذ لا شغل له - إلا ساعات تمضي في دروس معدودة - إلا مطالعة الكتب وجمع المواد وعرضها على الشيخ.

ومضت على ذلك تسعة أشهر، وتم شرح الجزء الأول في سلخ ذي القعدة ١٣٣٥ هـ، وكان الشيخ قد ملكته فكرة هذا التأليف وتغلغلت في أحشائه، وخالطت لحمه ودمه، وسيطرت على مشاعره وتفكيره وذوقه، حتى كان آخر ما يفكر فيه قبل النوم وأول ما يهتم به عند اليقظة، وحق له أن ينشد بلسان الشاعر الحماسي:

أآخر شيء أنت في كل هجعة وأول شيء أنت عند هبوبي؟!

ولا يفهم ذلك إلا من أكرمه الله بالغرام بمبدأ سامٍ ومقصد رفيع، فكان ذلك عنده مقياس الرضا ووسيلة القرب، فبمقدار

غناء الرجل في هذا العمل وإعانته عليه ومساهمته فيه ، كان حظياً عنده ، وجيهاً في عينه ، وقد عرف الناس ذلك وانتفعوا بـه ، وتقربوا بسببه إليه ، ذكرني هذا بما ذكره القاضي ابن شداد(١) عن السلطان صلاح الدين الأيوبي(٢) ، يقول: «ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه».

---

(١) هو أبو المحاسن يوسف بن رافع القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد (٥٣٩ ـ ٦٣٧ هـ) برع في الحديث والتفسير والأدب كان من ندماء السلطان صلاح الدين الأيوبي وخواصه سمع السلطان منه الحديث وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس ثم اتصل بعد وفاة السلطان بخدمة الملك الظاهر وحل عنده في رتبة الوزارة ، ألف في سيرة السلطان وسماه (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) وهو خير مرجع في سيرة السلطان.

(٢) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي الملك الناصر (٥٣٧ ـ ٥٨٩ هـ) نصر الله به الإسلام والمسلمين ورد غارة الصليبيين واسترد بيت المقدس بعد ما بقي في أيدي النصارى تسعين سنة وخلص مصر من دولة العبيديين الملاحدة إلى غير ذلك من المفاخر والمآثر التي قلما اتفقت لغيره بعد عصر الخلفاء الراشدين.
وفيات الأعيان لابن خلكان (٧/ ١٣٩) السلطان صلاح الدين الأيوبي ، للعلامة أبي الحسن الندوي.

«وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد»[١].

ومن يقرأ كتب التراجم والطبقات يرى أمثلة هذا الشغف والاستغراق عند كثير من العلماء والمؤلفين والعظماء والمصلحين في مشاربهم وأذواقهم.

وإذا استولى هذا الحب على إنسان وجرى منه مجرى الروح والدم أتى بالعجائب، وكان مصدر إلهام وتوجيه، وقد وقع للشيخ بعض حوادث غريبة فمنها أنه رأى مرة فيما يرى النائم كأن منبهاً ينبهه على خطأ في هذا الشرح، وقد فرغ منه فلما استيقظ دعا تلميذه الشيخ محمد زكريا وأخبره بهذه الرؤيا، ولما راجع هذا المقام وجد أن فيه خطأ فأصلحه.

وكان العمل قائماً على قدم وساق وكان الشيخ منصرفاً إليه بقلبه وقالبه، وتلميذه مقبلاً عليه بجميع قواه ومواهبه، إذ عرضت للشيخ رحلة إلى الربوع المقدسة، مهبط الوحي ومدرسة الحديث الأولى، وأبدى التلميذ رغبته ـ بما رأى من حرص الشيخ على إتمام هذا الكتاب وضعفه وعلو سنه ـ في المرافقة، فقبلها الشيخ مسروراً وأمل في تمام هذا العمل، وتوجه على بركة الله إلى الحرمين الشريفين وذلك في شهر شوال سنة ١٣٤٤ هـ، ولم يزالا مكبين على إتمام هذا الشرح، منقطعين إليه لا يتخلله إلا العبادة والفرائض الدينية والأمور الطبيعية، وكان الشيخ له دعوات ثلاث،

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (ص/ ١٦).

وأمانٍ عزيزة ، لا يعدل بها أمنية ، أولاها : أن تقوم في الحجاز حكومة إسلامية مستقرة، ويسود في ظلها الأمن والسلام وتستقر الأمور، والثانية : إكمال بذل الجهود ، والثالثة : أن يوافيه الوقت الموعود في مدينة الرسول - ﷺ - ويدفن في البقيع ، وقد أجاب الله دعواته الثلاث التي دعا بها على الملتزم وحقق هذه الأماني كلها .

ولثمان بقين من شعبان (٢١ شعبان) سنة ١٣٤٥ هـ تحققت أمنيته الكبرى التي غذاها بدم قلبه فتم الشرح ، وقد كانت مدة تأليفه عشر سنوات وخمسة أشهر وزادت عليها عشرة أيام وتم الكتاب في خمسة مجلدات كبار وفي ألفين من الصفحات بالقطع الكبير ، فكان له يوم عيد ، بل يوم ما جاء عليه يوم هو أكثر فرحاً وسروراً فيه من هذا اليوم ، فعين يوماً (وهو يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ) لضيافة علماء المدينة وأحبته وأصدقائه ، شكراً لله تعالى وإبداءً لسروره وفرحه ، وصنع طعاماً كثيراً على طريقة أهل الحجاز وأخبر تلاميذه ومريديه وأحبته في الهند بهذا الموعد المبارك ليشاركوه في السرور والشكر .

وقد وهب المدرسة حقوق هذا الكتاب تنتفع به وهي صاحبة الامتياز في طبعه وقد طبع مرتين ، وهذه هي الطبعة الثالثة بالحروف العربية للمرة الأولى مع زيادات وإفادات مهمة للشيخ محمد زكريا الذي كان له النصيب من أول عهد تأليف هذا الكتاب ، نسأل الله أن ينفع به طلبة العلم ويجعله ذخراً له في الآخرة وذكراً في الدنيا وصدقة جارية وباقية صالحة .

ميزات بين الشروح الأخرى لأبي داود

وكلمة عن خصائص هذا الشرح والتزامات المؤلف التي التزمها وعني بها عناية خاصة ونؤثر الإجمال والإشارة فإنما يعرف فضل هذا المجهود العلمي من باشر تدريس هذا الكتاب مدة طويلة وعرضت له مشكلات فنية.

فمنها أن المؤلف اهتم بأقوال الإمام أبي داود صاحب الكتاب وكلامه في الرواة أو في إيضاح بعض ما ورد في الحديث اهتماماً كبيراً.

ومنها أنه اهتم بتصحيح نسخ السنن المختلفة المنتشرة ويراه القارىء كمثال في باب افتتاح الصلاة في حديث أبي حميد الساعدي.

ومنها الاهتمام البالغ بتخريج التعليقات والفحص عنها في كتب أخرى وذكرها، وإذا لم ينجح في ذلك بعد التتبع البليغ صرح بذلك في غير تردد.

ومنها تطبيق الروايات بالترجمة وقد ظهرت في ذلك دقة فهمه وطول تأمله وحيث تكررت الأبواب دفع ذلك وذكر حكمة هذا التكرار ، ونضرب له مثلاً : باب صفايا رسول الله ـ ﷺ ـ من الأموال وباب سهم الصفي ، فليراجع في كتاب الخراج والفيء والإمارة.

ومنها أنه حكم فيما اختلف فيه الشراح بما يشرح الله له صدره وفتح عليه وتكلم بكلام فصل يثلج الصدر ويحل العقدة.

ومنها أن أكثر الكتب التي ألفت في الهند في شرح كتب الحديث أو في إثبات المذهب الحنفي وفي مسألة خلافية ، كان يغلب عليها في العهد الأخير الأسلوب الكلامي والاستدلال العقلي ، وتكثر فيها اللطائف العلمية ومع الاعتراف بقيمتها العلمية والكلامية وحسن قصد المؤلفين وعلو كعبهم في العلم يؤخذ عليها أنها لم تكن على طريقة المحدثين وشراح الحديث المتقدمين ، ويقل فيها الكلام على الرواة والجرح والتعديل وعلل الحديث وطبقاته وإلى غير ذلك من المباحث الحديثية ، ويستثنى من ذلك كتابان من تأليف علماء المذهب الحنفي في الهند في العهد الأخير ، أولهما : «كتاب المحلى شرح الموطأ» للشيخ سلام الله بن شيخ الإسلام الدهلوي الرامفوري(١) ، وثانيهما : «آثار

(١) هو الشيخ العالم المحدث سلام الله بن شيخ الإسلام بن فخر الدين الدهلوي أحد كبار العلماء كان من نسل الشيخ عبد الحق الدهلوي ، دخل=

السنن[١] والتعليق الحسن على آثار السنن» للشيخ العلامة ظهير حسن النيموي البهاري الهندي[٢].

أما هذا الشرح فيمتاز بأنه كتب على نهج المشتغلين بالحديث والباحثين فيه وكبار الشراح الذين تلقت الأمة شروحهم بقبول عام وانتفع بها طلبة العلم في كل عصر، واشتمل على بحوث قيمة في أسماء الرجال وأصول الحديث، وعارض مؤلفه الحجة بالحجة، وكان كلامه في أكثر الأحيان محدوداً في صناعة الحديث ومتعلقاتها من الفنون.

وقد استفاد المؤلف في هذا الشرح بتحقيقات شيخه الإمام

= رامبور في عهد فيض الله خان أمير تلك الناحية وانتفع بصلاته، له مصنفات ممتعة أشهرها الكمالين على الجلالين والمحلى شرح الموطأ ورسالة في أصول الحديث وغيرها، توفي سنة ١٢٢٩ هـ أو١٢٣٣ هـ (نزهة الخواطر: ٧/ ٢٠١).

(١) مع الأسف أن الكتاب من أول أبواب الطهارة إلى آخر أبواب الصلاة، ولو تم لكان عملاً جليلاً.

(٢) هو الشيخ العلامة ظهير أحسن بن سبحان علي النيموي العظيم آبادي، ولد ونشأ في بلدته ثم سافر إلى لكهنؤ وقرأ على العلامة عبد الحي اللكنوي وعلى غيره من العلماء واشتغل بقرض الشعر مدة طويلة ثم وفقه الله لخدمة الحديث الشريف فشمر عن ساق الجد وصنف «آثار السنن» وهو كتاب نادر غريب، ثم علق عليه وسماه «التعليق الحسن على آثار السنن» وله غير ذلك من المؤلفات النافعة، توفي سنة ١٣٢٥ هـ (نزهة الخواطر: ٨/ ٢٠٦).

المحدث مولانا رشيد أحمد الكَنكَوهي التي جاءت في دروسه ، وضبطها وقيدها تلميذه النابغة الشيخ محمد يحيى وكان من خصائصه أنه يتحرز بقدر الإمكان عن نسبة الخطأ إلى الراوي ، وإذا التجأ إليه الشراح ولم يروا من ذلك بداً فضل الشيخ العلامة تأويل ذلك بما يسيغه الفهم ويقبله العاقل المنصف ، ومثال ذلك الروايات التي جاء فيها وضع الخاتم ، فقد ذهب جميع المحديثن إلى أنه وهم من الزهري ولكن مؤلف «بذل المجهود»أول ذلك تأويلاً حسناً وهو مقتبس من كلام الشيخ الكَنكَوهي ، فليراجع ذلك في «باب الخاتم يكون فيه ذكر الله تعالى» في كتاب الطهارة.

ومنها لطائف الاستنباط التي احتوى عليها هذا الشرح ويراها القارىء منثورة في ثنايا هذا الكتاب.

ومن المباحث اللطيفة التي ظهرت فيها سلامة فكر المؤلف واطلاعه الواسع على كتب الحديث مسألة القسامة ويزول بكلامه اختلاف الروايات.

وكذلك من محاسن الكتاب ومن مواضعه المهمة التي ظهر فيها جهد المؤلف وإمعانه أحاديث الفتن والملاحم ، وقد اجتهد في تعيين هذه الفتن التي أشير إليها في هذه الأحاديث ، واهتم بترجيح الراجح وعين بعضها باجتهاده واستقصائه ويرى القارىء مثاله في شرح كلام قتادة حيث جاء في الكتاب «وكان قتادة يضعه على الردة التي في زمن أبي بكر على أقذاء ، يقول: قذى وهدنة ، يقول:

صلح على دخن على ضغائن»[١].

وقد أشار في شرح حديث إلى فتنة الشريف حسين بن علي، فليراجع ذلك في حديث عبد الله بن عمر الذي جاء فيه: «ثم يصطلح الناس على رجل كورك على ضلع»[٢] وذكر ذلك في تفصيل ووضوح، ويظهر في كلامه في مثل هذه المناسبات ثقته بتحقيقه وجزمه بما توصل إليه في البحث والتأمل، ولا يغلب عليه التواضع والتردد فيبعث هذا الجزم الثقة واليقين في نفس القارىء، وهذا من سياسة التعليم وحكمة التربية ومن محاسن الشرح.

وقد يتردد الشارح في صحة لفظ ورد في حديث، فيجتهد في تحقيقه اجتهاداً بالغاً ولا يدخر جهداً ويرى القارىء نموذج ذلك في «باب عبيد المشركين يلحقون بالمسلمين فيسلمون» في كتاب الجهاد، فقد ورد في متن الحديث عن علي بن أبي طالب قال: خرج عبدان إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يعني يوم الحديبية قبل الصلح وقد أطال الشارح الكلام في وقوع القصة بوم الحديبية، وأثبت أن هذه القصة وقعت في غزوة الطائف، وقال: لقد تحيرت في هذه القصة التي وقعت في حديث أبي داود والترمذي والمستدرك في الحديبية، فالظاهر أن الذي ذكر في أنها وقعت في الحديبية غلط من بعض الرواة بثلاثة أوجه.

---

(١) بذل المجهود كتاب الفتن: ١٧/ ١٤٠.

(٢) بذل المجهود كتاب الفتن ١٧/ ١٣٤، طبع دار البيان للتراث ـ القاهرة.

وذكر هذه الأوجه بتفصيل ، وذكر أن لفظ الحديبية ليس من علي بن أبي طالب بل من بعض الرواة ، لأن في لفظ الرواية لأبي داود زاد لفظ «يعني قبل يوم الحديبية» فهذا يدل على أن لفظ الحديبية ليس في أصل السند بل زاده بعض الرواة على ما فهم من لفظ شيخه ، ولو سلم أن هذه القصة وقعت في الحديبية أيضاً فالمراد بقوله ناس من بعض الكفار من قريش الذين كانوا موجودين هناك لا الصحابة ، إلى آخر كلامه ، فليراجع ، وهذا تحقيق شريف خلت عنه الشروح.

ونقتصر في هذه العجالة على هذه الإشارات ، ونحيل القارىء الذكي إلى مطالعة أصل الكتاب بإنعام النظر ، فكما قال الشاعر :

في طلعة الصبح ما يغنيك عن زحل

ونسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الأثر العلمي الجليل ويحبب به السنة والحديث ، إلى نفوس القراء ويلهم العمل به ويرفع الهمم ويشحذ العزائم إلى دراسته وخدمته ، إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير.



نظرات في سنن الإمام الترمذي
وميزاته وخصائصه

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين ، وسيد الأولين محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه الغر الميامين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد! فإن علم الحديث ـ بجميع فروعه وأقسامه وما يتصل به اتصالاً قريباً أو بعيداً ـ من العلوم التي نضجت واحترقت ، كما قال بعض حذاق العلماء والمؤرخين ، وصيارفة العلوم والفنون ، ولم يدع المشتغلون بهذه الصناعة في القوس منزعاً ، وهبت على الصحاح الستة التي عليها الاعتماد في صناعة الحديث ، نفحة من نفحات الخلود والقبول ، اللذين خص الله بهما نبيه المصطفى ـ ﷺ ـ وأعلن عن ذلك بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤] لاختصاص هذه الكتب بأخباره وأقواله ، وأحواله وآثاره ـ ﷺ ـ ، ولشدة إخلاص جامعيها في عملهم ، وجهادهم الأكبر في ذلك ،

وعلو همتهم ودقة نظرهم ، وإيثارهم هذا المقصد الأسنى على كل ما يعز ويلذ ، ويشغل ويستهوي ، وتجردهم له تجرداً يندر نظيره في تاريخ العلوم والفنون ، وفي تاريخ المنقطعين والمتجردين ، من العلماء والزاهدين، والمتبتلين المجاهدين.

وسرى نور هذا العمل الخالص ، والحياة المباركة التي يدور حولها ، وينبع عنها هذا العلم الشريف ، وهذه المكتبة الفذة ، فأشرقت الأرض بنور ربها ، وأضاء كل جانب من جوانب هذه المكتبة ، وتناول أئمة كل عصر ، ونوابغ كل بلد ، كل ما يتبادر إليه الذهن ، ويجول في الخاطر ، أو تقع إليه الحاجة من أخبار جامعيها ، وتراجم حياتهم ، وأخبار أساتذتهم وشيوخهم ، وشروطهم والتزاماتهم في هذه الكتب ، وخصائصها ، وما يمتاز به بعضها عن بعض ، والمقارنة بينها ، وفضل بعضها على بعض ، ومذاهبهم في اختيار الروايات ، وترجيحها وتركها ، وقبول الرواة وردهم ، وحكمهم على الأحاديث المروية ، والفوائد التي استخرجوها منها ، والأحكام التي استنبطوها ، إن كان هنالك هذا الصنف من الكلام ، وهذا الجانب من الفقه ، وسمت همَّة الشراح ودقة فهومهم ، فاقتنصوا في ذلك الأوابد ، وشقوا فيه الشعرة ، وكثرت الشروح والتعليقات[1] ، واشتدت العناية بتدريسها ونشرها

(١) وقد زادت الشروح والتعليقات على صحيح البخاري على مئة وهي سوى ما كتب فيه من المستخرجات والمستدركات وما إلى ذلك.

وروايتها ، والإجازة فيها حتى أصبحت تلي كتاب الله في تلقي الأمة لها ، والعناية بها ، ولنظرة عجلى في الكتب التي ألفت في تاريخ العلوم ، وفي تاريخ علوم الحديث خاصة ، وفي الكتب التي ألفت في أسامي العلوم والفنون والكتب ، ومقدمات الشروح الكبيرة لهذه الكتب الستة . تكفي للاطلاع على ضخامة هذه الثروة ، واتساع هذه المكتبة الحديثية ، ومدى عناية الأمة وشغفها بحديث نبيها ـ ﷺ ـ بصفة عامة ، وبالصحاح الستة بصفة خاصة .

ولجامع الإمام أبي عيسى الترمذي[١] مكانة خاصة في هذه الصحاح التي تلقتها الأمة بالقبول ، وأجمعت على علو درجتها ، فإنه قد استفاد بما سبق إليه أستاذاه الإمام محمد بن إسماعيل البخاري[٢] ، والإمام مسلم بن الحجاج القشيري[٣] بالتأليف ، وبذل الجهد في جمع الصحاح ، وكل ما سبق تأليفه في هذا الشأن ، وشق له طريقة خاصة من بين أئمة الحديث ، والذين صنفوا في هذا الموضوع ، وهكذا كل من جاء بعد السابقين الأولين ، ورزق ملكة التصنيف وقوة الاجتهاد والإبداع ، والاقتدار على الصناعة ، وقوة التصرف فيها ، ونضج علمه ونبغ عقله بالتقدم في السن ، وبطول الممارسة للصناعة ، وطول الصحبة لأئمة هذا

(١) مضت ترجمته .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) مضت ترجمته .

الفن ، وحبه ووفائه لهم ، والاعتراف لهم بالسبق والفضل ، وتواضعه وزهده في الدنيا ، وتجرده من الأغراض ، وطول دعائه وابتهاله إلى الله .

وكان يبدو للناظر في الصحيحين وقد بلغا الغاية في الصحة والدقة ، والاقتدار على الصناعة ، وفي سنن الإمام أبي داود السجستاني فقد جمع شمل أحاديث الأحكام بترتيب حسن ونظام جيد ، إنهم ما تركوا لمن يأتي بعدهم شيئاً ، وإن وضع كتاب في الأحاديث الصحيحة ، يكون من قبيل تحصيل الحاصل ، وجهاداً في غير جهاد ، وجاء الإمام أبو عيسى فوضع هذا الكتاب ، وقد نيف على الستين من عمره وهي سن النضج والنبوغ العقلي والحصافة ، فظهرت فيه شخصيته التأليفية الفنية واضحة جلية ، وبرهن على أنه سد عوزاً في هذه المكتبة الزاخرة التي كانت قد تكونت في هذا العصر الباكر ، وعلى أنه زاد في هذه الثروة ، وجاء بشيء جديد ، فقد جمع بين طريقتي شيخيه البخاري ومسلم في الجمع بين الفقه وبين وضع الحديث في موضعه ، وجمع بين محاسنهما واختصاصاتهما ، فجمع الروايات المتعددة في مكان واحد ، كما فعل مسلم ، وأتى بالفوائد الإسنادية كما هو دأب البخاري في مواضع من كتابه ، وتكلم على أحاديث كتابه حديثاً حديثاً ، وتفرد بمصطلحات ومسائل علمية خاصة به ، لا توجد في غير كتابه .

وكان من أول من طرق موضوع ما يسميه الناس اليوم بالفقه

المقـارن ، وكان لـه فضل كبير يجـب أن تعترف الأمة به في حفظه لفقه المدارس الاجتهادية في عصره ، ولولاه لضاع منـه الشيء الكثيـر ، وعفـا عليه الزمان ، وتلك خصيصـة لجامعـه تفرد بها من بين مصنفـات الحـديث والسنة ، فهو من أوثق المراجع وأقدمها في الخـلاف ، سيمـا فـي معـرفـة المـذاهـب المهجـورة ، كمـذاهـب الأوزاعي[١] والثوري[٢] ، وإسحاق بن راهويه[٣] ، وكان من

(١) الإمام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الفقيه الزاهد (٨٨ ـ ١٥٧ هـ) ولد في بعلبك وسكن بيروت وتوفي بها ، عرض عليه القضاء فامتنع ، كان رأساً في العلم والعمل الفتيا تدور بالألسن على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام ، قال عبد الرحمن بن مهدي : الأئمة في الحديث أربعة منهم الأوزاعي (وفيات الأعيان : ١/ ٢٧٥) (شذرات الذهب : ١/ ٢٤١) (الأعلام : ٣/ ٣٢٠) .

(٢) الإمام أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري (٩٧ ـ ١٦١ هـ) كان سيد أهل زمانه في العلم والورع والحفظ ولد ونشأ في الكوفة وراوده المنصور للحكم فأبى وهاجر إلى الحرمين الشريفين ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة وتوفي ، قال أحمد : لا يتقدم على سفيان في قلبي أحد ، وقال يحيى بن معين وغيره ، أمير المؤمنين في الحديث ، (تهذيب التهذيب : ٤/ ١١١) (طبقات ابن سعد . ٦/ ٢٥٧) (ابن خلكان ١/ ٢١٠) (شذرات : ١/ ٢٥٠) .

(٣) الإمام إسحاق بن إبراهيم أبو يعقوب ابن راهويه التميمي المروزي (١٦١ ـ ٢٣٨ هـ) أخذ عن الدراوردي وبقية وآخرين وأخذ عنه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم ، قال الدارمي : ساد إسحاق بصدقه أهل المشرق والمغرب ، (تهذيب التهذيب : ١/ ٢١٦) =

حسناته أنه حفظ للمتأخرين مذهب الشافعي[١] القديم .

ويكاد يكون كتابه «الجامع» المرجع الأساسي في الأحاديث الحسنة ، وهي ثروة حديثية لا يستهان بقيمتها ، ولا يستغنى عنها ، ولا نعرف أحداً من المحدثين الكبار الذين عليهم العمدة في هذه الصناعة اعتنى بهذا الجانب مثل اعتنائه ، حتى قال الإمام أبو عمرو عثمان بن صلاح[٢] في كتابه «علوم الحديث»[٣] : «كتاب

= (ميزان الاعتدال : ١/ ٨٥) (وفيات الأعيان : ١/ ٦٤) (شذرات الذهب : ٢/ ٨٩) .

(١) هو الإمام الحبر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ) أحد الأئمة الأربعة ذوي المذاهب المتبعة ، أخذ عن مسلم بن خالد الزنجي ، وسفيان بن عيينة ، ومالك بن راهويه وآخرين ، (تاريخ بغداد : ٢/ ٥٦) (وفيات الأعيان : ٤/ ١٦٣) (تذكرة الحفاظ : ١/ ٣٦١) (البداية والنهاية : ١٠/ ٢٥١) (تهذيب التهذيب : ٩/ ٢٥) (شذرات : ٢/ ٩) (صفة الصفوة : ٢/ ٩٥) .

(٢) الإمام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن صلاح الدين بن موسى الكردي الشهرزوري الشافعي (٥٧٧ ـ ٦٤٣ هـ) تفقه على والده وسمع من عبيد الله بن السمين وفخر الدين بن عساكر وموفق الدين بن قدامة وغيرهم ، وحدَّث عنه شمس الدين بن نوح المقدسي وكمال الدين سلار وتاج الدين عبد الرحمن وآخرون ، كان قوي المادة من اللغة العربية ، متفنناً في الحديث عديم النظير في زمانه (وفيات الأعيان : ٢/ ٢٤٣) (شذرات الذهب : ٥/ ٢٢١) (سير أعلام النبلاء : ٢٣/ ١٤٠) .

(٣) ص/ ١٤ ـ ١٥ .

أبي عيسى الترمذي ـ رحمه الله تعالى ـ أصل في معرفة الحديث الحسن ، وهو الذي نوه باسمه وأكثر من ذكره في جامعه».

ثم إنه اعتنى اعتناءً خاصاً بعلوم الرجال ، وعلم الجرح والتعديل ، وتفرد ببعض المسالك في صناعة الأسانيد ، لا يتفطن لها ، ولا يعرف قدرها إلا من رسخت قدمه ، وعلا كعبه في علوم الحديث وصناعته ، هذا عدا فنون كثيرة اشتمل عليها هذا الكتاب ، ولذلك قال الحافظ ابن الأثير[1] في جامع الأصول «هو أحسن الكتب وأكثرها فائدة ، وأحسنها ترتيباً ، وأقلها تكراراً ، وفيه ما ليس في غيره من ذكر المذاهب ، ووجوه الاستدلال ، وتبيين أحوال الحديث من الصحيح والسقيم ، والغريب ، وفيه جرح وتعديل» وقال الإمام أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري[2] :

(١) هو العلامة الإمام أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري ثم الموصلي الكاتب ابن الأثير صاحب جامع الأصول والنهاية في غريب الحديث (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) سمع من يحيى بن سعدون القرطبي وخطيب الموصل وطائفة ، وروى عنه ولده والشهاب القوسي والشيخ فخر الدين بن البخاري وآخرون (شذرات الذهب: ٥/ ١٥) (سير أعلام النبلاء: ٢١/ ٤٨٨).

(٢) الإمام الحافظ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (٣٩٦ ـ ٤٨١ هـ) سمع من عبد الجبار بن محمد الجراحي وعلي بن محمد بن محمد الطرازي ، وأحمد بن علي بن منجويه الأصفهاني وغيرهم ، وحدث عنه المؤتمن الساجي ومحمد بن طاهر وآخرون ، قال السلفي: سألت الساجي عنه ، فقال: كان أمة في لسان التذكير والتصوف=

«وكتابه عندي أنفع من كتاب البخاري ومسلم. . لأن كتابه يصل إلى فائدة كل أحد من الناس».

وكان كلام شيخ مشايخنا شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي أشمل لمحاسن هذا الكتاب وخصائصه، وأدق وأعمق في بيان فضله من بين الصحاح الستة، قال ـ رحمه الله تعالى ـ في «حجة الله البالغة»:

«ورابعهم أبو عيسى الترمذي، وكأنه استحسن طريقة الشيخين حيث بينا وما أبهما، وطريقة أبي داود حيث جمع كل ما ذهب إليه ذاهب فجمع كلتا الطريقتين وزاد عليهما بيان مذاهب الصحابة والتابعين، وفقهاء الأمصار، فجمع كتاباً جامعاً، واختصر طرق الحديث اختصاراً لطيفاً، فذكر واحداً وأومأ إلى ما عداه، وبين أمر كل حديث من أنه صحيح، أو حسن، أو ضعيف، أو منكر، وبين وجه الضعف ليكون الطالب على بصيرة فيعرف ما يصح للاعتبار عما دونه، وذكر أنه مستفيض أوغريب، وذكر مذاهب الصحابة وفقهاء الأمصار وسمى من يحتاج إلى التسمية، وكنى من يحتاج إلى الكنية، ولم يدع خفاءً لمن هو من رجال العلم، ولذلك يقال: «إنه كاف للمجتهد مغن للمقلد»[1].

* * *

= (تذكرة الحفاظ: ٣/ ١١٨٣) (البداية والنهاية: ١٢/ ١٣٥) (شذرات الذهب: ٣/ ٣٦٥) (سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٥٠٣).

(١) حجة الله البالغة: ص/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

عنـايـة الـعلمـاء بسنـن التـرمــذي

وقد عني بشرحه والتعليق عليه كبار المحدثين في عصور مختلفة ، ذكر أسماءهم الحاج خليفة جلبي[١] صاحب «كشف الظنون» والعلامة المحدث عبد الرحمن المباركپوري[٢] صاحب «تحفة الأحوذي» وجاءت هذه الأسماء في مقدمة «الكوكب الدري» للعلامة محمد زكريا الكاندهلوي[٣] ، وكان منهم علماء الهند في عصور وبلاد مختلفة ، استقصى أسماءهم وأسماء كتبهم وتعليقاتهم

---

(١) سلف ذكره .

(٢) هو العلامة المحدث عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباكپوري (١٢٨٣ ـ ١٣٥٣ هـ) قرأ في بلدته على أبيه ثم اشتغل على الشيخ عبد الله الغازيپوري ، أخذ الحديث عن المحدث الشيخ نذير حسين الدهلوي وولي التدريس ببلدة «آرا» ثم انتقل إلى كلكتا ودرس زماناً حتى انقطع للتأليف وأقام عند الشيخ شمس الحق الديانوي ثلاث سنين وأعانه في التصنيف والتأليف ثم عاد إلى وطنه ولزم بيته عاكفاً على التأليف والتصنيف والدرس والإفادة ، له كتب أشهرها «تحفة الأحوذي» في شرح جامع الترمذي في مجلدات كبار (الأعلام : ٨/ ٢٥٩) .

(٣) مضت ترجمته .

صاحب كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند»[١] ، وكان ذلك هو المتوقع واللائق بعلو درجة هذا الكتاب وأهميته وتعرضه للمذاهب الفقهية ، والأحاديث المؤيدة لها ، الدالة عليها ، أو الناقضة لها ، وحلوله المكان الأول في المناهج الدراسية ، وحلقات التدريس للحديث الشريف .

وكان علماء المذهب الحنفي من أحوج علماء المذاهب ، والمشتغلين بعلم الحديث بالاعتناء بهذا الكتاب الجليل ، لاشتماله على مجموعة كبيرة من أحاديث الأحكام ، وما يستدل به أهل المذاهب في إثبات مذاهبهم ، وما ذهبوا إليه من قديم الزمان ، ولاعتماد كثير من مخالفيهم على ما أخرجه الترمذي ، وما نقله من مذاهب الفقهاء فكان هذا الكتاب جديراً كل الجدارة باعتنائهم به ، وعكوفهم على شرحه ، والاستدلال على صحة مذهبهم ، وقوته في ضوء الحديث الصحيح ، وبيان أدلة مذهبهم ، ووجوه استنباطها على أساس ما صح من الأحاديث ، واحتوت عليه دواوين السنة ، وذلك شيء طبيعي ، فإن جامع الترمذي هو أقوى الكتب الستة اتصالاً بالمذاهب الفقهية وأدلتها ، وترجيح بعضها على بعض ، فما يمكن التغاضي عنه لمحدث أو مدرس للحديث الشريف يعمل بالمذهب الحنفي .

---

(١) هو العلامة السيد عبد الحي الحسني صاحب «نزهة الخواطر» المتوفى ١٣٤١ هـ . وقد مضت ترجمته .

ولكن من الغريب أن علماء المذهب الحنفي ، والمشتغلين منهم بعلم الحديث لم يخلفوا آثاراً كثيرة في هذا الموضوع ، وكل ما عثرنا عليه مما كتب بالعربية ، شرح عليه للشيخ طيب بن أبي الطيب السندي[(١)] من رجال آخر القرن العاشر الهجري ، وشرح لأبي الحسن بن عبد الهادي السندي المدني[(٢)] (م ١١٣٩ هـ) وجل ما أثر عن علماء الهند ـ وهم حملة راية الدفاع عن المذهب الحنفي ، والجامعين بين الحديث والفقه ـ إما بالفارسية ، لغة المسلمين العلمية والتأليفية التي تلي اللغة العربية في هذه البلاد ، كشرح الشيخ سراج أحمد السرهندي[(٣)] وأما بالأردية ، اللغة التي حلت محل الفارسية في العهد الأخير كجائزة الشعوذي للشيخ بديع الزمان بن مسيح الزمان اللكنوي[(٤)] ،

---

(١) هو الشيخ العالم المحدث طيب بن أبي الطيب التتوي السندي أحد فحول العلماء ولد ونشأ بأرض السند وقرأ على مولانا يونس المفتي ولازمه مدة ، درس وأفاد وتخرج به العلماء ، له بعض المصنفات ، منها تعليقاته على «مشكاة المصابيح» توفي في بضع وتسعين وتسعمئة (الإعلام: ٤/ ١٤٧).

(٢) مضت ترجمته.

(٣) هو الشيخ العالم المحدث سراج أحمد بن مرشد العمري السرهندي ثم الرامپوري (١١٧٦ ـ ١٢٣٠ هـ) نشأ في مهد أبيه وانتفع بعلومه ، له مصنفات منها شروحه على صحيح مسلم وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه كلها بالفارسية (الإعلام: ٧/ ٢١٧).

(٤) هو الشيخ العالم المحدث بديع الزمان بن مسيح الزمان اللكنوي =

وشرح للشيخ فضل أحمد الأنصاري[١].

وإما مجموع إفادات أفاد بها بعض كبار شيوخ الحديث في درسهم لجامع الترمذي، قيدها بالكتابة بعض نجباء تلاميذهم غالباً في أثناء الدرس، ونادراً على إثر انصرافهم عنه إلى مكانهم ويسمى «تقرير» وعبر عنه صاحب «الثقافة الإسلامية في الهند» بقوله: «شرح عليه بالقول» ومن هذه المذكرات أو الإفادات شرح للمفتي صبغة الله بن محمد غوث الشافعي المدراسي[٢] (م ١٢٨٠ هـ)، ومنها «المسك الزكي» للإمام المحدث الشيخ رشيد أحمد الكَنكَوهي[٣] ـ رحمه الله ـ (م ١٣٢٣ هـ) وتعليقات للعلامة محمود حسن

= (١٢٥٠ ـ ١٣٠٤ هـ) قرأ على العلامة عبد الحي اللكنوي وغيره ثم سافر إلى الحجاز فحج وأخذ الحديث عن الشيخ محمد بن عبد الرحمن السهارنبوري ورجع وأسند الحديث عن الشيخ نذير حسين الدهلوي ثم رحل إلى بهوبال واستخدمه العلامة صديق حسن خان فأقام بها مدة ثم سافر إلى حيدر آباد كان من العلماء المشهورين برفض التقليد، له مصنفات منها ترجمة جامع الترمذي إلى أردو (الإعلام: ٨/ ٩٩).

(١) ذكره صاحب الثقافة، ولم نعثر على سنة وفاته، ولا اسم كتابه.

(٢) هو الشيخ العالم المحدث صبغة الله بن محمد غوث المدراسي الشافعي (١٢١١ ـ ١٢٨٠ هـ) قرأ على الشيخ علاء الدين اللكنوي، وولي الصدارة (بناكَور) ثم ولي الإفتاء بها ثم ولي القضاء، سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار له مصنفات أشهرها هداية السالك إلى موطأ مالك (الإعلام: ٧/ ٢٤٤).

(٣) مضت ترجمته.

الديوبندي المعروف بشيخ الهند[١] (م ١٣٣٩ هـ) ، ومنها «العرف الشذي على جامع الترمذي» للعلامة محمد أنور شاه الكشميري[٢] (م ١٣٥٢ هـ) وجمعها تلميذه الفاضل الشيخ محمد چراغ البنجابي[٣].

واستثنى من هذه الكلية كتاب «معارف السنن» للعلامة المحدث الشيخ محمد يوسف البنوري شيخ الحديث بالمدرسة العربية الإسلامية في «كراتشي» ومديرها ، وهذا الشرح كما يقول مؤلفه ، ألفه في ضوء ما أفاده أستاذه العلامة الجليل الشيخ محمد أنور شاه الكشميري .

وهذا الكتاب القيم «الكوكب الدري» مجموع إفادات وتحقيقات للإمام المحدث الفقيه ، المربي الجليل ، المصلح الكبير ، الداعي إلى عقيدة التوحيد الخالص ، والسنة السنية البيضاء ، وإصلاح النفس ، والإنابة إلى الله ، الإمام رشيد أحمد الكَنكَوهي (م ١٣٢٣ هـ) ، وقد جاء في ترجمته في «نزهة الخواطر» :

«وكان قبل سفر الحجاز في المرة الثالثة يقرىء في علوم عديدة من الفقه والأصول ، والكلام ، والحديث والتفسير ، وبعد العودة من الحجاز في المرة الآخرة ، أفرغ أوقاته لدرس الصحاح الستة

(١) مضت ترجمته .
(٢) مضت ترجمته .
(٣) لم نعثر على ترجمته .

والتزم بدرسها في سنة واحدة ، وكان يقرأ جامع الترمذي أولاً ، ويبذل جهده فيه في تحقيق المتن والإسناد ، ودفع التعارض ، وترجيح أحد الجانبين ، وتشييد المذهب الحنفي ، ثم يقرأ الكتب الأخرى «سنن أبي داود» فصحيحي البخاري ومسلم ، فالنسائي[١] ، فابن ماجه[٢] سرداً مع بحث قليل يتعلق بالكتاب»[٣] .

فكان الشيخ كما فهم مما نقلناه ، وتواتر عن تلاميذه ، يقدم تدريس «جامع الترمذي» على سائر كتب الحديث ، ويفيض في

---

(١) هو الإمام الحافظ الثبت أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني النسائي صاحب السنن (٢١٥ ـ ٣٠٣ هـ) سمع من إسحاق بن راهويه وبشر بن هلال وهشام بن عمار وطبقتهم ، وكان من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر ونقد الرجال وحسن التأليف ، أخذ عنه أبو بشر الدولابي وأبو جعفر الطحاوي وأبو علي النيسابوري وآخرون ، (تهذيب الكمال : ١/ ٢٣) (تذكرة الحفاظ : ٢/ ٦٩٨) (شذرات الذهب : ٢/ ٢٣٩) (سير أعلام النبلاء : ١٤/ ١٢٥) .

(٢) هو الإمام الحافظ الحجة أبو عبد الله محمد بن يزيد ، ابن ماجه القزويني صاحب السنن (٢٠٩ ـ ٢٧٣ هـ) سمع من علي بن محمد الطنافسي وجبارة بن المغلس وعثمان بن أبي شيبة وآخرين ، كان حافظاً ناقداً ، صادقاً ، واسع العلم أخذ عنه محمد عيسى الأبهري وسليمان بن يزيد الفامي وآخرون (تهذيب التهذيب : ٩/ ٥٣٠) (تذكرة الحفاظ : ١/ ٦٣٦) (شذرات الذهب : ٢/ ١٦٤) (سير أعلام النبلاء : ١٣/ ٢٧٧) .

(٣) ج/٨ ، ص/١٤٩ ـ ١٥٠ .

الشرح والإيضاح ، ويذكر ما فتح الله به عليه ، وأدت إليه دراسته وممارسته للفن ، وتعمُّقه فيه ، ويتوسَّع ما لا يتوسع في غيره ، ومما أكرمه الله به ، القول المتين الفصل بعبارة وجيزة ، قليلة المباني ، كثيرة المعاني ، مؤسساً على دراسة عميقة للفقه وأصول الفقه ، ومناسبة فطرية بصناعة الحديث ، والتمسك بلباب المقصود ، بعيداً عن الإفراط والتفريط ، والتوسع في نقل أقوال السلف وحججهم ، مستعيناً في ذلك بما امتاز به من بين أقرانه من سلامة ذوق ، وصفاء حس ، واقتصاد في النقد والمحاكمة ، وحسن ظن بالسلف ، والتماس عذر لهم ، وتواضع ظاهر .

وقد قيد هذه الإفادات والتحقيقات تلميذه النجيب النابغ الوفي الشيخ محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (م ١٣٣٤ هـ) حين حضر هذا الدرس الحافل سنة ١٣١١ هـ، وكانت له ملكة علمية راسخة ، يتوقد ذكاءً وفطنة ، وكان شيخه عظيم الحب كثير الإيثار له ، قد اتخذه بطانة لنفسه ، وراوية علمه ، وكاتب رسائله ، فقيد دروس الشيخ ، ودَوَّن أماليه ، ونقَّحها وحررها .

ومن ضمن هذه الإفادات والتحقيقات بل في مقدمتها هذه المجموعة المسماة بـ«الكوكب الدري» وكان يقيد ما يسمعه من شيخه في درس جامع الترمذي نفس اليوم بالعربية ، وكان ينتهز أول فرصة لتقييدها حتى لا تفوته فائدة ، ولم يقدر له أن يستأنف النظر في هذه المذكرات ، والفوائد المقيدة ، وأن يحررها تحرير المؤلفات التي تؤلف على هدوء تام ، وطمأنينة نفس ، واجتماع

فكر ، وفراغ خاطر ، واتساع وقت إلا أنه ـ جزاه الله عن المشتغلين بتدريس الجامع ، وعن جميع من يعرف قيمة هذه الإفادات التي هي عصارة دراسة طويلة ، وتأمل كبير ـ قد صان هذه الدرر العلمية من الضياع والتلف ، وترك أساساً يبنى عليه ويشيد البناء ، فجاء نجله العلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الذي قدر الله له حفظ هذا التراث العلمي ونشره ، والتوسيع فيه ، وإكمال ما بدأ به والده العظيم ، وأفاد به شيخه الجليل ، فتناول هذه المجموعة التي كادت تضيع وتطير بها العنقاء ، بالتحرير والتنقيح ، والمقابلة والتصحيح .

وكتاب «الكوكب الدري» ـ وهو بالمذكرات أشبه منه بشرح ضاف واف ، لجامع الترمذي ـ على وجازته وقلة حجمه ، وعدم استيفائه للشرح للكتاب من أوله إلى آخره ، يشتمل على فوائد كثيرة لا يعرف قيمتها إلا من اشتغل بتدريس الجامع طويلاً ، وعرف مواضع الدقة والغموض التي لا يرتاح فيها المدرس الحاذق ، أو الطالب الذكي إلى ما جاء في عامة الشروح والتعليقات ، ويتوق فيها ويتطلع إلى ما يحل العقدة ، ويروي الغلة بكلام فصل لا فضول فيه ولا تقصير ، هذا إضافة إلى فوائد في اللغة وغريب الحديث وعلم الرجال والأصول ، ومقاصد الشريعة ، وفيه بعض النكت واللطائف التي يعين عليها صفاء النفس وإشراق القلب والحب ، والقول السديد في ترجيح بعض الوجوه على بعض ، وتعيين معنى

من المعاني بالذوق والممارسة ، وجواب للإيراد على المذهب الحنفي .

وقد تجلى الذوق الأدبي في بعض المواضع من الشرح ، وظهرت طلاوة العبارة وحلاوة التعبير ، لأن الشارح كانت له قدم في الأدب ، وقد تأتي العبارات مقفاة مسجوعة على عادة الكتاب في ذلك العصر من غير تكلف وركاكة .

وأضاف العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا جامع هذه المذكرات إلى صلب الكتاب ما جاء من فوائد في شروح للكتب الأخرى مستقاة من نبع علمي واحد ، كـ «بذل المجهود» و«لامع الدراري» وغيره ، وعلق على الكتاب تعليقاً مفيداً منيراً يكشف عن الغامض ، ويفصل المجمل ، ويوضح المبهم ، وضمه إلى تحقيقات استخرجها من كتب أخرى ، وعني بتنقيح الأقوال ، وتحرير المذاهب ، معتمداً في ذلك على ما توصل إليه من كتب المذاهب الأربعة التي لا يتفق نشرها في حياة الشارح ، ولم يتسن الاطلاع عليها فزاد في قيمة الكتاب العلمية ، وساعد على الانتفاع به ، وزاد فوائد استفادها في حياته التعليمية الطويلة ، وطول ممارسته لصناعة الحديث ، وكثرة مراجعته لما ألف في علوم الحديث ونشر أخيراً ، والعلم بحر لا ساحل له .

وأضاف إليه كذلك ما استفاده في درس والده العلامة ، وقد تكون أموراً ذوقية ، أو علوماً وجدانية ، هداه إليها ذوقه السليم ،

ونظره العميق ، وطول اشتغاله بصناعة الحديث وإخلاصه وصفاء ذهنه ، وقد تكون أقرب إلى الصواب ، وأكثر كشفاً لمعاني الحديث من كثير مما تناقله الشراح ، نفع الله بهذا الكتاب ، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، وصلى الله على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين .



الإمـام النسـائـي وكتابـه السنـــن

هو الحافظ الإمام أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر الخراساني القاضي صاحب السنن ، ولد سنة خمس عشرة ومئتين (٢١٥ هـ) وسمع قتيبة بن سعيد[١] وإسحاق بن راهويه[٢] ، وهشام بن عمار[٣] وأمثالهم بخراسان والعراق والحجاز ومصر والشام والجزيرة ، وبرع في هذا الشأن ، وتفرَّد بالمعرفة والإتقان وعلوِّ الإسناد ، واستوطن مصر.

---

(١) هو المحدث الإمام الثقة الجوال راوية الإسلام أبو رجاء قتيبة بن سعيد الثقفي (م ١٤٩ ـ ٢٤٠ هـ) أخذ عن مالك والليث وابن المبارك وفضيل بن عياض وغيرهم وحدث عنه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين والحميدي والبخاري ومسلم وغيرهم (سير أعلام النبلاء : ١١/ ١٣ ـ ٢٥).

(٢) سلف ذكره.

(٣) هو الإمام الحافظ العلامة المقرىء عالم الشام ، أبو السيد هشام بن عمار السُّلمي (م ١٥٣ ـ ٢٤٥ هـ) سمع من مالك ومسلم الزنجي ويحيى بن حمزة وغيرهم ، وحدث عنه من أصحاب الكتب البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم ، (سير أعلام النبلاء : ١١/ ٤٣٠ ـ ٤٣٥).

صنف كتاب الخصائص لعلي رضي الله عنه في دمشق ، لأنَّ المنصرفين عنه كثير ، ثم إنه صنف بعد ذلك فضائل الصحابة ، يصف شيوخ عصره اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار ، وقد خرج إلى الغزو مع أمير مصر ، واستشهد بدمشق من جهة الخوارج ، قال الدارقطني[(١)]: دفن بمكة بين الصفا والمروة ، وكانت وفاته في شعبان سنة ثلاث وثلاثمئة ، واختلفت الأقوال في محل وفاته .

وأما كتابه السنن فيقول عنه الحافظ أبو عبد الله بن رشيد «أنه من أبدع الكتب المصنَّفة في السنن تصنيفاً ، وأحسنها ترصيفاً ، وهو جامع بين طريقتي البخاري ومسلم مع حظ كثير من بيان العلل[(٢)] وهو يقول عن كتابه: «كتاب السنن صحيح كله» ، ويقول ابن حجر[(٣)] عن شدته في أخذ الأحاديث: فكم من رجل أخرج له

(١) هو الإمام الحافظ أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (٣٠٦ ـ ٣٨٥ هـ) سمع من أبي القاسم البغوي ، ويحيى بن محمد بن صاعد ، وأبي بكر بن داود وأمثالهم ، وأخذه عنه الحافظ أبو عبد الله الحاكم والحافظ عبد الغني وأبو نعيم الأصبهاني وخلق كثير ، كان من بحور العلم ، ومن أئمة الدنيا ، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله ، مع التقدم في القراءات وطرقها ، كما في سير أعلام النبلاء: ١٦/ ٤٤٩ ـ ٤٦٠ .

(٢) مقدمة زهر الربى على المجتبى .

(٣) سلف ذكره .

أبو داود والترمذي[1] تجنب النسائي إخراج حديثه.

وظن بعض الناس أن اختصاره المعروف بالمجتبى هو من نفس المؤلف ولكنه خطأ وقد صرَّح الذهبي[2] أنه اختصره تلميذه الحافظ أبو بكر بن السني[3]، وشرح عليه للسيوطي[4] وسماه «زهر الربى على المجتبى».



(١) سلف ذكره.

(٢) مضى ذكره.

(٣) هو الإمام الحافظ الثقة الرحَّال أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهاشمي مولاهم الدينوري المشهور بابن السني ولد في حدود سنة ثمانين ومئتين سمع من أبي خليفة الجمحي وأبي عبد الرحمن النسائي وأكثر عنه، وخلق كثير، جمع وصـ ـ ـ وحدَّث عنه أبو علي أحمد بن عبد الله الأصبهاني، وأبو الحسن محمد بن علي العلوي وعلي بن عمر الأسدبادي وعدَّة توفي في آخر سنة أربع وستين وثلاثمئة.

(٤) مضت ترجمته.

الإمـام ابـن ماجـه وكتابـه السنــن

هو الحافظ الكبير المفسر أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه الربعي صاحب السنن والتفسير والتاريخ ، ولد سنة تسع ومئتين وسمع محدثي عصره الكبار ، وحفاظ الحديث الأجلاَّء ، قال أبو يعلى الخليلي(١) : ابن ماجه ثقة كبير متفق عليه ، محتج به ، وله معرفة وحفظ ، ارتحل إلى العراقين ومكة والشام ومصر ، وفي السنن بعض أحاديث ليست في مستوى أحاديث صحيحة متفق عليها كما في كتب الصحاح والسنن الأخرى .

كانت وفاته لثمان بقين من رمضان سنة ثلاث وسبعين ومئتين

(١) هو القاضي العلامة الحافظ أبو يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد الخليلي القزويني سمع من علي بن أحمد القزويني ومحمد بن إسحاق الكيساني والقاسم بن علقمة وأمثالهم وروى عنه أبو بكر بن لال وهو شيخه وابنه واقد وإسماعيل بن مكي وآخرون ، كان ثقة حافظاً ، عارفاً بالرجال والعلل ، توفي بقزوين في آخر سنة ست وأربعين وأربعمئة وكان من أبناء الثمانين . سير أعلام النبلاء : ٢١/ ٦٦٦ .

رحمه الله تعالى ، قال أبو الحسن القطان[١] صاحب ابن ماجه : في السنن ألف وخمسمئة باب ، وجملة ما فيها أربعة آلاف حديث[٢].

وأما كتابه السنن ، فيقول عنه ابن حجر العسقلاني في التهذيب : «وكتابه السنن جامع جيد» ، ويقول الحافظ ابن كثير : هو كتاب مفيد قوي التبويب في الفقه ويقول السندي عنه : إنه أخرج من المتون في كثير من الأبواب ما ليس في الكتب الخمسة المشهورة وإن كانت ضعيفة ، وفي الباب أحاديث صحيحة ، أخرجها أصحاب تلك الكتب في كتبهم.

وأول من أدخله في الصحاح هو أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي[٣] ثم تابعه أصحاب الأطراف

(١) هو الإمام الحافظ القدوة أبو الحسن علي بن إبراهيم القزويني القطان (٢٥٤ ـ ٣٤٥ هـ) سمع من ابن ماجه سننه ومن أبي حاتم الرازي وغيرهما ، وجمع وصنف وتفنن في العلوم ، حدث عنه الزبير بن عبد الواحد وأبو الحسن النحوي وأبو الحسين اللغوي وغيرهم ، سير أعلام النبلاء : ١٥/ ٤٦٣ .

(٢) تذكرة الحفاظ الجزء الثاني مختصراً.

(٣) هو الإمام الحافظ الجوال الرحال أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن القيسراني المقدسي الظاهري الصوفي (٤٠٨ ـ ٥٠٧ هـ) سمع من أبي علي الحسن بن عبد الرحمن الشافعي وطبقته بمكة ومن السعد الزنجاني وحسين بن علي البصري وغيرهم وحدث عنه شيرويه بن شهرزار وأبو جعفر بن أبي علي الهمذاني ، وأبو نصر أحمد بن عمر الغازي =

والرجال[١] وشرحه وعلَّق عليه كثير من الناس في كتب منها: «مصباح الزجاجة» للسيوطي[٢] و«شرح ابن ماجه» للسندي[٣] و«إنجاح الحاجة» للشيخ عبد الغني الدهلوي[٤].

* * *

= وطائفة سواهم، وكتب ما لا يوصف كثرة بخطه السريع القوي الرفيع وصنف وجمع وبرع في هذا الشأن، سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٣٦١ ـ ٣٧١.

(١) تدريب الراوي ص ٣٠.

(٢) مضت ترجمته.

(٣) سلف ذكره.

(٤) هو الشيخ الإمام العالم المحدث عبد الغني بن أبي سعيد العمري الدهلوي (١٢٣٥ ـ ١٢٩٦ هـ) ولد في دلهي وحفظ القرآن وقرأ النحو والعربية على مولانا حبيب الله الدهلوي ثم أقبل على الفقه والحديث وأخذ عن والده وعن الشيخ إسحاق بن أفضل الدهلوي ومخصوص الله بن رفيع الدين وغيرهم، وأخذ الطريقة عن أبيه وسافر إلى الحرمين الشريفين وأسند عن الشيخ محمد عابد السندي ثم رجع واشتغل بالحديث وأخذ عنه خلق كثير من العلماء ثم لما تسلَّط الإنكليز على الهند شد رحله إلى المدينة وحل بها حزامه، كان إماماً في العلم والعمل واتفق الناس على ولايته وجلالته، وله ذيل نفيس على سنن ابن ماجه. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، للعلامة عبد الحي الحسني (٧/ ٣٦٠).

نبذة من تاريخ الحديث والمحدثين في الهند

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد ، قائد الغر المحجلين ، وعلى أصحابه حفظة الكتاب والسنة ، وحملة لواء الدين ، ومن تبعهم بإحسان من العلماء الراسخين ، الذين ينفون عن الإسلام تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين.

أما بعد! فإن علم الحديث من العلوم التي ألهم الله هذه الأمة (في أول عهدها وعلى إثر وفاة نبيها) العناية به ، والجهاد في سبيل حفظه وتدوينه ، ونقله ونشره ، والتهالك على تلقيه وجمعه[١] ، والتنافس في ضبطه وإتقانه ، والاهتمام بكل ما يتصل به من علوم

(١) وفي هذا السبيل وقائع عجيبة تحير العقول ، منها رحلة سيدنا جابر إلى الشام لسماع حديث واحد ورحلة سيدنا أبي أيوب الأنصاري إلى مصر للتثبت من حديث ، ويقول سعيد بن المسيب: إني أسافر أياماً وليالي لحديث واحد.
وكان الطالبون يزدحمون على دروس العلماء وكان في بعض الدروس أزيد من مئة وألف نفس كما صرح بذلك الذهبي في تذكرة الحفاظ في بعض تراجم المحدثين.

وفنون[١] ، إلهاماً قوياً واضحاً ، تجلت فيه حكمة الله وعنايته بصيانة هذا الدين وإكماله ، حتى كان ذلك دافعاً نفسياً لا تعرف الأمة مصدره ، ولا تستطيع له قهراً ولا دفعاً وكأن سائقاً يسوقها نحو هذه الغاية سوقاً عنيفاً في الظاهر ، فلا تستطيع مقاومته ، رفيقاً لطيفاً في الباطن ، فلا تشعر بثقله ووطأته ، وتجد في الانسياق إليه والاستجابة له ، لذة لا تعدلها لذة ، وراحة لا تعدلها راحة ، فتهون لأجل ذلك عليها المتاعب والمشقات ، وتقصر في سبيلها الأبعاد والمسافات ، وتتدفق على طلبه من مظانه ، وحفظه وروايته من أهله ونقله من مكان إلى مكان ، سيول وجيوش ، من أذكياء الأمم والشعوب ، ومن نوابغ البلاد والعباد ، لا يعرف نظيرهم في تاريخ أمة وحضارة ، ولا في تاريخ علم وثقافة .

وكان كل ذلك سراً من الأسرار الإلهية ، وبرهاناً ساطعاً على مدى عناية الله تعالى بهذه الرسالة التي ختم الله بها الرسالات ، وبهذه الشريعة التي قضى الله ببقائها وخلودها ، وانتشارها وعمومها لجميع العصور والأجيال ، وهذا الإلهام الذي كان سبباً لاندفاع الأمة إلى حفظ الحديث النبوي مرة ، وإلى استنباط الأحكام وتفريع الفروع مرة أخرى ، وإلى تدوين العلوم المنبثقة من القرآن من صرف ونحو وبلاغة مرة ثالثة ، وإلى تأليف الكتب ووضع المعاجم

(١) لا سيما بعلم الرجال الذي أصبح فناً من الفنون وأكب عليه العلماء وصنفوا فيه بغاية من الدقة والسعة والتنوع .

وتأسيس المدارس مرة رابعة ، وإلى العناية بتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق وتفصيل حقيقة الإيمان ، والوصول إلى درجة الإحسان «وتجديد الطب النبوي الشريف» في معالجة القلوب والنفوس ، ووضع أسس هذا العلم وإرساء قواعده إلى غير ذلك مما ألهمه أزكى نفوس هذه الأمة وأعظمها رسوخاً في العلم والدين ، وأكثرها حظاً في الإيمان واليقين ، من أجلى دلائل ختم النبوة وإكمال هذا الدين ، وأن عناية الله لا تفارقه لحظة واحدة ، وأن مدده لا يتخلف عنه في حين من الأحيان .

وكان لكل بلد من بلاد الإسلام نصيب غير منقوص من هذا الإرث النبوي يدخل مع الغزاة والفاتحين ، والدعاة والمبلِّغين ، والأساتذة والمدرسين ، والفقهاء والمحدثين ، فدخل علم الحديث في أوائل الفتح الإسلامي في بلاد الهند ، وكان من جملة من وفد إليها من المجاهدين في سبيل الله الربيع بن الصبيح السعدي(١) ، الذي قال عنه الجلبي(٢) في كشف الظنون «هو أول

(١) أبو بكر ربيع بن صبيح السعدي البصري ، المحدث العابد المجاهد ، ومن أول من صنف في الإسلام روى عن الحسن وأقرانه وروى عنه الثوري ووكيع وآخرون ، قال شعبة : إنه من سادات المسلمين ، وقال أحمد : لا بأس به ، خرج غازياً إلى السند فمات ودفن في إحدى الجزر ، (تهذيب التهذيب : ٢/ ٢٤٧) (حلية الأولياء ٦/ ٣٠٤) (شذرات الذهب : ١/ ٢٤٧) (الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام : ١/ ٦٩) .
(٢) سلف ذكره .

من صنف في الإسلام» ولا شك أنه من أول المؤلفين في علم الحديث إذا لم يكن أولهم بالإطلاق ، وقد مات ودفن في الهند سنة ١٦٠ هـ .

وقد رافق علم الحديث العرب الذين غزوا هذه البلاد ، فقد امتزج بلحمهم ودمهم ، فحملوا معهم هذا العلم الشريف ، وكان يرافقهم في كل غزوة علماء محدثون ، وكان فيهم من سكن الهند ومات فيها[1] ، وانتشر علم الحديث في دولة العرب وحكمهم ، فلما انقرضت دولة العرب من بلاد السند وتغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية ، وتتابع الناس من خراسان وما وراء النهر صار الحديث فيها غريباً كالكبريت الأحمر ، وعديماً كعنقاء المغرب ، وغلب على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية ، وفي العلوم الدينية ، الفقه والأصول ، ومضت على ذلك قرون متطاولة ، حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان ، والإضراب عن علوم السنة والقرآن إلا ما يذكر من الفقه على القلة ، وكان قصارى نظرهم

(١) هو الإمام رضي الدين أبو الفضائل حسن بن محمد العدوي العمري الصاغاني الحنفي الفقيه اللغوي المحدث (٥٧٧ ـ ٦٥٠ هـ) ولد في لاهور ونشأ في غزنة ، حج وزار ودخل بغداد ورحل إلى اليمن وأخذ عن شيوخ عصره وأخذ عنه الدياطي والهروي وابن الصباغ وغيرهم ، له تصانيف كثيرة أشهرها مشارق الأنوار في الحديث ، (شذرات الذهب: ١/ ٢٥٠) (الجواهر المضيئة: ١/ ٢٠١) (الإعلام: ١/ ١٥٦) (الأعلام: ٢/ ٢١٥).

في الحديث في مشارق الأنوار للصغاني[١] ، فإن ترفع أحد إلى مصابيح السنة للبغوي[٢] ، أو إلى مشكاة المصابيح للتبريزي[٣] ظن أنه وصل إلى درجة المحدثين وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث[٤] .

واستمر الحال على ذلك وتفاقم الخطب ، حتى كادت صلة المسلمين في الهند تنقطع عن هذا المعين الصافي والمصدر الأصيل للدين ، وأصبحت الهند تعيش في عزلة عن حركة التأليف والتعليم في البلاد العربية ، وتخلفت عن ركب العلوم الإسلامية ، وأصبحت عالماً مستقلاً ومنفصلاً ، ولما زار الشيخ شمس الدين

(١) راجع لمعرفة أسماء من قصد الهند من المحدثين وأتباع التابعين كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، فصل الحديث في بلاد الهند : ص/ ١٣٥ .

(٢) هو الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الملقب «محيي السنة» (٤٣٣ ـ ٥١٦ هـ) رحل بطلب العلم إلى مرو الروذ فأقام بها وتلقى العلم من شيوخها ، كان ذا تعبد ونسك وقناعة باليسير وله مكانة مرموقة في الحديث والتفسير والقراءات والفقه وله مؤلفات أشهرها مصابيح السنة(سير أعلام النبلاء : ١٩/ ٤٤٣) (معجم المؤلفين : ٤/ ٦١) .

(٣) هو الإمام ولي الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي ، قال فيه شيخه العلامة الطيبي «بقية الأولياء» وقطب الصلحاء ، ولا نعرف تاريخ ولادته ووفاته على الضبط غير أنه توفي بعد سنة ٧٤٠ هـ وهي السنة التي أكمل فيها كتابه الإكمال (معجم المؤلفين : ١٠/ ٢١١) .

(٤) العبارة بلفظها منقولة عن كتاب : «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة السيد عبد الحي الحسني طبع دمشق : ص/ ١٣٥ .

المصري[١] هذه البلاد في عهد علاء الدين الخلجي[٢] في القرن الثامن الهجري آلمه ذلك وأفزعه ، فكتب رسالة إلى السلطان يؤاخذ فيها الفقهاء في هذه البلاد على قلة الاعتناء بالحديث ولكن علماء البلاد احتالوا في منع هذه الرسالة عن الوصول إلى السلطان[٣] .

وأدركت الهند العناية الإلهية ، فأتحف الله هذه البلاد بالوافدين الكرام من المحدثين ، من الحجاز ، وحضرموت ، ومصر والعراق ، وإيران[٤] وذلك في القرن العاشر الهجري ، ولكن أكثرهم آثروا الإقامة في كَجرات لوجود دولة إسلامية تحمي العلوم وتحتضن العلماء ، وامتاز ملوكها بتحصيل علم الحديث ، والشغف به ، وأكثر هؤلاء الوافدين مات ودفن في أحمد آباد[٥] عاصمة حكومة كَجرات .

---

(١) لم نعثر على ترجمته لأن هناك شخصيات في مصر بهذا الاسم ولم نطلع على زيارة أحد منهم إلى الهند .

(٢) الملك المؤيد علاء الدين محمد شاه بن مسعود الخلجي كان ابن أخ السلطان جلال الدين الخلجي وختنه أقطعه مدينة كرا وما والاها من البلاد ، ثم فتك علاء الدين بجلال الدين واحتوى على ملكه ونظمه ورتب القوانين ونظم الأسعار فوسع ملكه وقاتل الشرار استقر على الملك عشرين سنة ، وتوفي في سنة ٧١٦ هـ (الإعلام : ٢/ ١٥٢) .

(٣) راجع تاريخ فيروز شاهي للقاضي ضياء الدين البرني .

(٤) اقرأ أسماءهم في كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند : ص/ ١٣٦» .

(٥) وهي المدينة التي وقعت فيها في سبتمبر ١٩٦٩ م المجزرة التي ذهب ضحيتها آلاف من المسلمين .

ثم ساق بعض علماء الهند سائق التوفيق إلى الحرمين الشريفين مصدر هذا العلم ومعقله ، يطول ذكر أسمائهم ، أشهرهم الشيخ حسام الدين علي المتقي[١] صاحب كنز العمال ، وتلميذه الشيخ محمد بن طاهر الفتني صاحب مجمع البحار[٢] ، فخدما علم الحديث خدمة باهرة ، وألفا مؤلفات عظيمة ، حتى جاء دور الشيخ العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي[٣] ، المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ ، فأخذ علم الحديث من علماء الحجاز ونقله إلى الهند واتخذ دار الملك دلهي مركزاً له ، وشمر عن ساق الجد والاجتهاد في نشر علم الحديث وخدمته ، تعليماً وتدريساً وشرحاً

(١) العلامة علي بن حسام الدين بن عبد الملك المتقي الشاذلي السهارنفوري الإمام المحدث الزاهد (٨٨٥ ـ ٩٧٥ هـ) لازم الشيخ حسام الدين المتقي وقرأ عليه ، ثم سافر إلى الحجاز وأخذ عن الشيخ أبي الحسن البكري والشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر المكي ، ووفد إلى الهند داعياً ومعلماً مرتين مؤلفاته كثيرة أشهرها كنز العمال (شذرات الذهب: ٨/ ٣٧٩) (الإعلام: ٤/ ٢٠٩).

(٢) هو العلامة محيي الدين محمد بن طاهر الحنفي الفتني الكَجراتي الإمام المحدث اللغوي (٩١٣ ـ ٩٨٦ هـ) قرأ على أهل بلده حتى برع في الفنون فسافر إلى الحرمين الشريفين وأخذ عن ابن حجر المكي وغيره ولازم المتقي وأخذ عنه ثم رجع إلى الهند وعكف على الدرس والإفادة ورد البدع والمنكرات ، له مصنفات أشهرها مجمع بحار الأنوار.

(٣) سلف ذكره.

وتعليقاً ، فأقبل العلماء على علم الحديث ، وانتشرت الصحاح وتداولتها الأيدي ونفقت سوق هذا العلم بعد كسادها ، لقلة البضاعة وزهد العلماء فيه ، وخلفه ولده وأولاد أولاده ، ودرسوا وألفوا ، ونهض علماء كبار في كل طرف من أطراف الهند ، ونبغ فيهم رجال يعترف بفضلهم وحذقهم للصناعة(١) .

ثم جاء دور شيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي(٢) المعروف بولي الله (م ١١٧٦ هـ) فرحل إلى الحجاز ، وأخذ الحديث عن الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني(٣) ، وعاد وقصر همته على نشر الحديث ، فقامت دولة الحديث في الهند ، وهبت ريحه تجري رخاءً من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب ، وتهافت على طلبه رواد علم الحديث من أقصى الهند إلى أقصاها ، وأصبح علم الحديث شرطاً للكمال ، وشعاراً لأهل الصلاح والعقيدة الصحيحة ، حتى أصبح العالم لا يعتبر عالماً حتى يبرز فيه ، وتقرر تدريس الصحاح الستة في كل حلقة تدريس ، وانتشر تلاميذه وتلاميذ تلاميذهم في طول الهند

---

(١) اقرأ أسماء النابهين منهم والمبرزين في كتاب «الثقافة الإسلامية . .» فصل : علم الحديث في الهند .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) محمد بن إبراهيم بن حسن أبو طاهر الكردي الكوراني المدني الشافعي ، المحدث الفقيه ، (١٠٨١ ـ ١١٤٥ هـ) مولده ووفاته بالمدينة ولي فيها إفتاء الشافعية مدةً (الأعلام : ٥/ ٣٠٤) .

وعرضها ، كشجرة «طوبى» التي يوجد فرعها في كل مكان ، ولا يعرف أصلها ومركزها ، فما من سند ولا درس ولا تأليف ولا حركة إصلاح وتجديد إلا وينتهي نسبه العلمي إلى هذه الدوحة المباركة ، وفروعها السامقة ، وقد صدق من قال:

من زار بابك لم تبرح جوارحه
تروي أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة
والقلب عن جابر والسمع عن حسن[١]

وخلف الشيخ ولي الله ابنه النجيب وتلميذه الرشيد الشيخ عبد العزيز بن ولي الله[٢] (م ١٢٣٩ هـ) ، وقد بارك الله في تدريسه ، وتخرج عليه علماء أعلام ، ومحدثون عظام ، أشهرهم وأعظمهم توفيقاً في نشر الحديث وتربية الأساتذة والمدرسين ، سبطه الشيخ محمد إسحاق بن محمد أفضل العمري[٣] ، فقد انتهت

---

(١) قرة ، وصلة ، وجابر ، وحسن ، الكلمات التي جاءت في هذين البيتين كلها أسماء رواة الحديث الكبار ، وقد ورد في تهذيب التهذيب ستة رجال اسم كل واحد منهم (انظر هذا الهامش فيما يلي) «قرة» مثل قرة بن إياس ، وقرة بن حبيب ، وقرة بن خالد وغيرهم ، والمراد بصلة ، هو صلة بن زفر العبسي ، وجابر هو جابر بن عبد الله الصحابي المشهور و«حسن» هو الحسن بن يسار البصري الإمام المشهور.

(٢) مضت ترجمته.

(٣) العلامة المحدث أبو سليمان إسحاق بن محمد أفضل العمري الدهلوي =

إليه رئاسة الحديث في العصر الأخير ، وأصبح المرجع والمآب في التدريس والتخريج ، وشدت إليه الرحال من أقاصي البلاد ، وكتب الله له من التوفيق والقبول ما لم يكتبه لأحد من معاصريه في الهند ، وفي أكثر الأمصار الإسلامية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومنه تبتدىء وعليه تلتقي جميع المدارس الفكرية[١] في فهم الحديث وشرحه وتأويله ، وهي على اختلاف مشاربها وتباين مذاهبها ترد نسبها العلمي وتنتهي بسندها في الحديث إليه ، فهو مسند الهند ووساطة العقد ، ومنتهى أهل الرواية في العصر الأخير .

ومن أنجب تلاميذه وأشهرهم الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد[٢]

= مسند الهند (٦ أو٧ ـ ١١٩ ـ ١٢٦٣ هـ) قرأ على الشيخ عبد الحي البرهانوي ، وأخذ الحديث عن الشيخ عبد القادر الدهلوي ثم أسند عن الشيخ عبد العزيز وناب عنه في الدرس والإفادة ، سافر إلى الحجاز مرتين واختار الإقامة في الرحلة الثانية ، أخذ عنه الشيخ عبد الغني والشيخ نذير حسين والشيخ ناصر الحازمي وآخرون (الإعلام : ٧/ ٥٩) .

(١) كمدرسة المحدث الشهير الشيخ نذير حسين الدهلوي وتلاميذه ، وكمدرسة الشيخ عبد الرحمن الباني بتي ، والشيخ عالم علي النكَينوي ، والشيخ أحمد علي السهارنبوري ، والشيخ عبد الغني المجددي .

(٢) هو العلامة المحدث الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد العمري الدهلوي (١٢٣٥ ـ ١٢٩٦ هـ) قرأ على الشيخ حبيب الله الدهلوي وأخذ الحديث عن الشيخ إسحاق الدهلوي ، والشيخ أبي سعيد المجددي ، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين وأسند عن العلامة محمد عابد السندي ثم رجع وعكف على الدرس والإفادة ثم سافر إلى مكة المكرمة ومنها إلى المدينة المنورة=

المجددي الدهلوي المهاجر إلى المدينة المنورة ، فقد انتفع بدروسه في الهند وفي الحرمين الشريفين خلق كثير ، وتخرج على يده عدد من المخلصين والعلماء الربانيين ، الذين وقفوا حياتهم على تدريس الحديث الشريف ونشره وخدمته .

وبفضل هؤلآء المخلصين الذين وهبوا حياتهم لنشر الحديث وتدريسه ، والتأليف في فنونه وفروعه ، أصبحت الهند مركزاً لهذا العلم ومنتجعاً لرواد هذا الفن ، بعد ما عاشت قروناً متطفلة على مائدة البلاد العربية ، تقتبس منها هذا العلم بعد فترة ، وتشعل مصباحها بعد ما ينفد زيته من مصباح من مصابيح هذا العلم في بلاد العرب ، وأشرقت الهند بنور هذا العلم وانتشرت المصابيح في جميع نواحيها كالكواكب الدرية ، وقامت في وقت واحد في مدن كثيرة في هذه البلاد وبعض قراها حلقات مختصة لتدريس علم الحديث ، يشد العلماء المتخرجون في العلوم الأخرى إليها الرحال ، فيعكفون على طلب الحديث النبوي عكوفاً كاملاً ، سنة أو أكثر منها ، وينقطعون إليه انقطاعاً كلياً ، لا يشوبهم غرض ، ولا يزاحمه علم ، ولا يتوزع همهم ، ولا يتشوش خاطرهم ، يقتصرون في أكثر الأحيان على شيخ واحد ، وعلى علم واحد ، وعلى غرض واحد ، حتى يخرجوا من هذه الحلقات أساتذة معلمين ، ومربين مرشدين ، فيلتف حولهم التلاميذ النجباء ،

= وحل بها حزامه حتى وافته المنية (الإعلام : ٧/ ٣٢٠) .

والمتخرجون في المدارس ، شأنهم مع أساتذتهم وشيوخهم ، ويتصل الأمر وينتقل النور وتتسع الدائرة إلى ما يشاء الله تعالى .

وكانت هذه الحلقات التي تنبع من فرد ، وتدور حوله ، قائمة في أكثر المدن الرئيسية والقرى الشهيرة كدلهي، ولكهنؤ ، وسهارنفور ، وباني بت(١) ، وديوبند ، ومرادآباد ، وبهوبال ، ومن القرى : كَنكَوه ، وكَنج مرادآباد(٢) وغيرها .

وكانت كَنكَوه مركزاً للعلامة رشيد أحمد الكَنكَوهي(٣) (م ١٣٢٣ هـ) تلميذ الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد المجددي ، وقد جمع بين التربية والإرشاد والتدريس والإفتاء ، وكان يدرس في علوم متنوعة ، ثم انقطع إلى تدريس الحديث الشريف واقتصر عليه دون سائر العلوم ، وقصده الطلبة والعلماء من الآفاق ، وكانوا يمكثون عنده سنة يقرؤون عليه الصحاح الستة ، وينتفعون بصحبته وتربيته ، ويتخذونه قدوة في الأخلاق والعادات ، والأعمال والعبادات ، واتباع السنة والنفور عن البدع ومحدثات الأمور ، ويتذوقون علم الحديث ممارسة ومدارسة ، ويتضلعون بحبه ،

---

(١) كان يدرس فيها الشيخ عبيد الرحمن الباني بتي (م ١٣١٤ هـ) من كبار تلاميذ الشيخ محمد إسحاق .

(٢) كان يدرس الحديث الشريف فيها العارف الكبير الشيخ الجليل فضل الرحمن الكنج مراد آبادي (م ١٣١٣ هـ) تلميذ الشيخ محمد إسحاق ، وله إجازة عن الشيخ عبد العزيز بن ولي الله .

(٣) الثقافة الإسلامية في الهند : ص/ ١٤١ .

ويعـزمـون علـى خـدمتـه ونشـره ، وإيثـاره علـى جميـع العلـوم والأشغال ، لما رأوا من شيخهم التفاني في الاشتغال به ، وأنه قد خالط لحمه ودمه ، وظهر في حياته وحركاته وسكناته ، وقد ذكره صاحب «الثقافة الإسلامية في الهند» فقال: «أخذ عن الشيخ عبد الغني المذكور ، ودرس ثلاثين سنة ، وكان تدريسه للأمهات الست في سنة كاملة على وجه التدبر والإتقان ، والضبط والتحقيق ، لا يعادله في ذلك أحد من معاصريه»[١]

وكان من أنجب تلاميذه وأوفاهم لعلومه وتراثه العلمي ، وأحرصهم على نشره وإفاضته الشيخ محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي[٢] (م ١٣٣٤ هـ) وكانت له ملكة علمية راسخة ، يتوقد ذكاء وفطنة ، وكان شيخه عظيم الحب كثير الإيثار له ، قد اتخذه بطانة لنفسه ، وراوية علمه ، وكاتب رسائله ، فقيّد دروس الشيخ ، ودون أماليه ، ونقحها وحررها ، فجمع ما سمع منه في درس سنن الترمذي في مجموع سماه: «الكوكب الدري»[٣] وجمع ما سمعه في درس الجامع الصحيح للبخاري في كتاب آخر[٤] ، فحفظ بذلك قسطاً كبيراً من علمه وتحقيقاته ، وجعلها كلمة باقية في عقبه .

---

(١) مضت ترجمتهما .

(٢) مضت ترجمتهما .

(٣) طبع الكتاب في جزأين .

(٤) سمى هذا الكتاب من بعد بـ «لامع الدراري» وتم في ثلاثة أجزاء .

وصاحب مقدمة «أوجز المسالك إلى شرح موطأ الإمام مالك» هو العلامة الشيخ محمد زكريا بن الشيخ العلامة يحيى الكاندهلوي البار ، الذي أراد الله أن يكمل ما بدأه أبوه ، وأن ينشر ما دونه من أمالي شيخه وعلومه ، وأن يزيدها تنقيحاً وتهذيباً ، ويضيف إليها الشيء الكثير من تحقيقاته وحصيلة دراسته ومطالعاته ، ونتيجة فكره وتأملاته ، وأن يكون ركناً من أركان علم الحديث في هذه البلاد وفي هذا العصر الأخير ، يعيد إليه زهرته ونضارته ، ويجدد ذكرى مآثر السلف في الانقطاع للعلم والتبتل له ، وعلو الهمة ، وشدة المجاهدة ، وقوة النفس ، والانصراف إلى معالي الأمور ، والزهد في سفسافها ومحقراتها ، والاستهانة بزخارف الحياة والاستغراق في المطالعة والتأليف والتعليم والتدريس ، والانصراف عما لا يعنيه إلى ما ينفعه وينفع الناس ، وفي سعة الأخلاق ، وسماحة النفس ، ورحابة الصدر ، والاحتمال للأضداد والأشتات من الأعمال والأشغال ، والمشارب والأذواق ، والأفراد والجماعات ، ما لا يوفق له ولا يقدر عليه إلا الأفراد القلائل في فترات طويلة من أهل النفوس الزكية ، والقوة القدسية ، والهمة القعساء العلية.

وكان مما أكرمه الله به أن شيخه أبدى رغبته وحرصه الشديد على وضع شرح لسنن أبي داود وطلب منه أن يساعده في ذلك وأن يكون فيه عضده الأيمن وقلمه الكاتب وكان ذلك مبدأ سعادته وإقباله ووسيلة وصوله إلى الكمال ، واختصاص لا مزيد عليه

بالشيخ ، فكان الشيخ خليل أحمد يرشده إلى المظان والمصادر العلمية التي يلتقط منها المواد فيجمعها الشيخ محمد زكريا ويعرضها على شيخه فيأخذ منها ما يشاء ويترك ما يشاء ثم يملي عليه الشرح فيكتبه ، وهكذا تكوّن كتاب «بذل المجهود في شرح سنن أبي داود» في خمسة أجزاء كبار وفتح ذلك قريحته في التأليف والشرح ووسع نظره في فن الحديث ثم اهتم بطبعه في المطابع الهندية والعناية بتصحيحه وإخراجه بإخلاص كامل ومجاهدة شديدة ، فنال بذلك رضا شيخه وحاز ثقته حتى انتهى ذلك إلى ما انتهى إليه من خلافة ونيابة وإقبال القلوب والنفوس إليه ، وما وفق له من بعد من جلائل الأعمال وفضائل الأخلاق .

وكانت سفرته في سنة ١٣٤٤ هـ للحج التي رافق فيها شيخه هي سفرة شيخه الأخيرة للحج ومبدأ سفرة للآخرة فأكمل تأليف «بذل المجهود»وهنالك حصلت له الإجازة العامة والخلافة المطلقة عن الشيخ خليل أحمد ، وفي هذه الرحلة وأثناء إقامته في مدينة الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ بدأ في تأليف كتاب «أوجز المسالك» في شرح الموطأ لإمام دار الهجرة وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، بدأ تأليفه في مسجد الرسول الكريم ـ ﷺ ـ عند أقدام الرسول الكريم ـ ﷺ ، وبارك الله في الكتابة والتأليف فأكمل في بضعة شهور ما لم يكمله في سنين عديدة في الهند ، ووصل في الشرح إلى أبواب الصلاة وظل مشتغلاً به بعد عودته إلى الهند تتخلله فترات طويلة حتى أكمله في ستة أجزاء كبار .

وهذه تحفة سنية علميَّة للعلماء وطلبة هذا الفن بما جاء فيها من علم جمٍّ ومادة غزيرة ومعلومات مفيدة قد تشتت في بطون الأسفار وكتب التاريخ والأخبار ، حتى أصبحت بذلك موسوعة صغيرة فيما يتصل بكتاب الموطَّأ ومؤلفه العظيم(١) ، هذا إلى ما جاء فيها من أصول وقواعد ودرر وفرائد ، نسأل الله أن ينفعنا والمسلمين بها .

❊ ❊ ❊

(١) وهي من أنفع شروح الموطأ وأغزرها مادة وفوائد حتى قال بعض المالكية : إنه لم يوجد أي شرح للموطأ كهذا الشرح العظيم حتى الآن .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**